الفصل الثالث

التجارة العالمية إبان الفترة ١٠٠٠–١٥٠٠

النتائج الاقتصادية لإمبراطورية جنكيز خان

WORLD TRADE 1000-1500: THE ECONOMIC CONSEQUENCES OF GENGHIS KHAN

ينصب تركيزنا في "التجارة العالمية" من العام ١٠٠٠ إلى العام ١٥٠٠ بالدرجة الأولى على التجارة بين الوحدات الإقليمية التي حددناها في الفصل الأول، مع الانتباه في حال الضرورة إلى التطورات داخل هذه المناطق. لقد لاحظنا فيما سبق أن التجارة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود شملت العالم الإسلامي وكلاً من أوروبا الغربية والشرقية. وربط المحيط الهندي بين العالم الإسلامي وشرق أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا، فيما ربط بحر الصين الجنوبي الصين بالأرخبيل الإندونيسي بطريقة مباشرة، وبالهند والعالم الإسلامي بطريقة غير مباشرة. وكان البحر الأحمر والخليج العربي البوابة البحرية المهمة بين الشرق والغرب خلال هذه الفترة، تماماً كما كانا منذ الأزمان الرومانية وما قبلها. وكان الطريق البري هو الممر البديل الذي ربط الصين بالعالم الإسلامي وكل من أوروبا الشرقية والغربية عبر آسيا الوسطى. وعلى ذلك، فمن الملائم أن ننظم مناقشتنا في هذا الفصل تحت العناوين الفرعية: (١) البحر

الأبيض المتوسط والبحر الأسود، (٢) المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي، (٣) التجارة البرية من الصين إلى أوروبا عبر آسيا الوسطى. ونظراً لأن الفترة الطويلة التي نفحصها في هذا الفصل شهدت تحولات حاسمة في السيطرة على هذه الطرق التجارية، كانت لها نتائج تاريخية بالغة الأهمية، فقد يكون من المفيد أن نقسم الفترة كاملة إلى حقبتين متمايزتين، الأولى تمتد من العام ١٠٠٠ إلى العام ١٣٥٠ والثانية تمتد من العام ١٣٥٠ إلى العام ١٥٠٠، ويفصل بينهما التفشي الأول للطاعون.

إن البيانات الكمية المتاحة حول الجزء المبكر من هذه الفترة شحيحة لدرجة العدم، لكن يوجد قدر مذهل من المعلومات حول السلع التي كانت تصدّرها وتستوردها كل المناطق والدور الذي لعبه ذلك في النظم الاقتصادية لكل منطقة. سنبرز التغيرات في طرق التجارة وبعض التقديرات النوعية لحجم التجارة على طول هذه الطرق. ومع نهاية القرون الوسطى تغدو البيانات أوفر، خاصة بيانات الأسعار، وهو ما سننهل منه في الأقسام التالية من هذا الفصل.

لقد تقرر مصير التاريخ الاقتصادي لأوراسيا في نصف الألفية التي يغطيها هذا الفصل بفعل صدمتين كبيرتين (ومترابطتين)، واحدة جيوسياسية والأخرى بيولوجية. تمثلت الصدمة الأولى في توحيد المغول بقيادة جنكيز خان لمعظم اليابسة الأوراسية. وتمثلت الصدمة الثانية في كارثة الطاعون الذي تفشى في الوقت نفسه الذي تفككت فيه الإمبراطورية المغولية. ولذلك يعالج هذا الفصل النتائج الفورية وبعيدة المدى للصدمتين بالتفصيل. وثمة موضوع ثالث يتخلل الفصل، وهو الانبثاق التدريجي لأوروبا الغربية من منطقة خلفية ريفية ومنعزلة نسبياً بأوراسيا في بداية الفترة وتحولها إلى قوة توسعية هائلة في أنحاء الكرة الأرضية كافة بعد خمسة قرون. وبالنظر إلى مقولة هالفورد ماكيندر "المحور الجغرافي للتاريخ"، نقول إن نصف الألفية التي يغطيها هذا الفصل

شهدت بداية تحول القوة من "قلب" اليابسة الأوراسية الذي سيطر عليها منذ فجر التاريخ، إلى "حافة" الطرف الغربي لتلك اليابسة، الأمر الذي بلغ أوجه مع رحلات كرستوفر كولومبس وفاسكو دا غاما وفرديناند ماجلان، فضلاً عن الثورة العسكرية- الملاحية المُجَمّعة في "المدافع والأشرعة"[١].

التجارة والحرب في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود إبان الفترة ١٠٠٠- ١٣٥٠

كان البحر الأبيض المتوسط، أو "بحرنا" كما أطلق عليه الرومان، الطريق السريع الحيوي الذي أنتج الوحدة الاقتصادية لإمبراطوريتهم أكثر بكثير من طرقهم الشهيرة(١). وكما لاحظنا في الفصل السابق، فإن ادعاء هنري بيرين الشهير بأن الصعود العربي المفاجئ إبان القرن السابع جعل البحر المتوسط "بحيرة إسلامية"، ما أدى إلى قطع التجارة بين أوروبا الغربية وبيزنطة وإلى هيمنة سياسة الاكتفاء الذاتي في أوروبا الغربية، لم يعد مقبولاً بين المؤرخين. بل ويدفع موريس لومبارد بأن العصر الذهبي للإسلام حفّز التجارة مع أوروبا الغربية، حيث وفر لها شريكاً تجارياً مزدهراً جداً. والتجارة بين العالم الإسلامي وأوروبا يمكن تحليلها ضمن إطار "المركز- المحيط"(٢)، وفيه تخصصت أوروبا في السلع كثيفة الموارد وكثيفة العمالة، بينما تخصص العالم الإسلامي في الصناعات الأكثر تقدماً. كان العبيد السلعة الأعلى كثافة في العمالة، مثلما كانوا السلعة التصديرية الأوروبية الرئيسة إلى العالم الإسلامي على مدى قرون، إلى أن جفف اعتناق السلاف الوثنيين المسيحية منبع هذه السلعة. ولذلك يمكن إرجاع

(١) أطلق الرومان على البحر الأبيض المتوسط اسم "بحرنا" Mare Nostrum، لأنه بالفعل كان بحيرة رومانية. كما اشتهرت الإمبراطورية الرومانية ببنيتها التحتية المتطورة، وبخاصة الطرق، ومن هنا جاءت المقولة الشهيرة: "كل الطرق تؤدي إلى روما"، حيث ربطت الإمبراطورية كل المدن والبلاد المفتوحة بطرق مرصوفة تؤدي جميعها إلى روما [المترجم].

(٢) حول تقسيم العالم أو الاقتصاد إلى "مركز" و"محيط"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

التراجع في الحرف الحضرية والنشاطات المرتبطة بها الذي لاحظه بيرين إلى حالة من نقض التصنيع deindustrialization شهدها نظام اقتصادي كان أكثر توازناً في السابق، نتجت عن فرص الصادرات المربحة للمنتجات الأولية إلى شريك أكثر تقدماً وتطوراً من الناحية التقنية، وهو مثال مبكر لما يُعرَف حالياً باسم "المرض الهولندي"[٣]، وهو أيضاً الصورة المقابلة للتصنيع المتصاعد وتراجع صادرات الحبوب في حالة مصر الفاطمية الذي أشرنا إليه في الفصل السابق. وأياً كانت الأسباب، فلا شك في أنه في نحو العام ١٠٠٠، كانت أوروبا الغربية والجزء السلافي من أوروبا الشرقية غير المنضوي تحت الإمبراطورية البيزنطية، منطقة خلفية متخلفة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية.

من المفيد أن نبدأ فحصنا للتجارة من "السوق الواقع على الحافة الغربية"[٢] الذي تتلاقى عنده الحافة الغربية لعالم البحر الأبيض المتوسط الإسلامي والحافة الجنوبية لأوروبا المسيحية. وقد رأينا في الفصل الأول أن السلالة الأموية الأصلية في أيبيريا والدولة المركزية المرتبطة بها قد تمزقت إلى عدد من الممالك الصغيرة في أوائل القرن الحادي عشر، عُرِفت باسم دول الطوائف. وقد مكّن تفكك الدولة الإسلامية المسيحيين من دفع حدودهم جنوباً وفرض إتاوات كبيرة على دول الطوائف، وفي النهاية الاستيلاء على المدينة الرئيسة طليطلة في العام ١٠٨٥. حثّ ذلك تدخل حكام المغرب البربر الذين أسسوا دولة موحدة عبر مضيق جبل طارق، هي دولة المرابطين. وتكررت الدورة السياسية للتفكك يليه التدخل من شمال أفريقيا إبان القرن الثاني

(٣) في الاقتصاد، يشير مفهوم "المرض الهولندي" Dutch Disease إلى العلاقة الواضحة بين الزيادة في استغلال الموارد الطبيعية والتراجع في قطاع الصناعة، ذلك أن الزيادة في العائدات من الموارد الطبيعية (أو التدفقات من المساعدات الأجنبية) تؤدي إلى تقوية عملة الدولة مقارنة بالدول الأخرى (كما يتجلى في أسعار الصرف)، الأمر الذي يرفع أسعار السلع الأخرى (غير الموارد الطبيعية) لهذه الدولة ويجعلها أصعب في شرائها، ما يجعل قطاع الصناعة بهذه الدولة أقل تنافسية [المترجم].

عشر مع دولة بربرية جديدة، هي دولة الموحدين التي تأسست في العام ١١٤٧. كانت هاتان الإمبراطوريتان البربريتان الموحدتان على جانبي المضيق مهيمنتين اقتصادياً وقويتين عسكرياً بفضل سيطرتهما على الوصول إلى موارد الذهب جنوب الصحراء. لكن فترات مجد هاتين الإمبراطوريتين كبحها في النهاية توسع أوروبا المسيحية الناهضة. فسقطت قرطبة وإشبيلية أمام قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر، فيما نجحت أراغون في استعادة بلنسية وجزيرة ميورقة. وفي العام ١٣٥٠ لم يكن يبقى في أيدي المسلمين غير مملكة غرناطة.

رأينا في الفصل السابق أن الرخاء الاقتصادي للأندلس اعتمد على نقل المحاصيل والتقنيات الزراعية ونشاطات التصنيع من الشرق إلى الغرب داخل العالم الإسلامي. وجاء اعتناق السلاف للمسيحية ونجاح الاسكندينافيين في تطوير التجارة بين أوروبا والعالم الإسلامي على حساب منافسين مثل يهود الرذنية ليحوُل دون عبور الفراء القطبي والعبيد الأوروبيين الشرقيين عبر أيبيريا بأعداد كبيرة. واقتصر مصدر العبيد على الأسرى من الممالك الأيبيرية المسيحية، وحلت جلود الأرانب المتواضعة محل فراء السمور الشمالي الغالي. لكن، ظل ذهب غرب أفريقيا يتدفق عبر الأندلس، وبخاصة بعد أن يسكّه المرابطون في شكل عملة رائجة جداً، استخدمها كثير من الممالك المسيحية وقلدوها.

كان الخشب، كما ورد في مواضع سابقة، أحد الصادرات الرئيسة لإسبانيا الإسلامية في هذه الفترة، سواء في شكل أخشاب أو سفن. وكان الخشب يأتي في الغالب من غابات الصنوبر الواسعة بالمناطق الساحلية وجزر البليار، حيث كانت جذوع الأشجار تندفع فوق الماء في اتجاه جريان الأنهار إلى مراكز بناء السفن في دانية Denia وبلنسية، وكانت السفن تباع للمشترين المسلمين والمسيحيين حول البحر

الأبيض المتوسط. وكانت الأندلس تصدّر أيضاً عدة معادن، خاصة النحاس والزئبق والرخام والقصدير. وثمة سلعتان تصديريتان غريبتان وثمينتان، هما العنبر من ساحل المحيط الأطلسي والصبغ القرمزي المسمى القرمز. وثمة تشكيلة واسعة من المنسوجات عالية النوعية، بالدرجة الأولى الحرير، كانت تصدّر حول البحر الأبيض المتوسط. ومن المؤكد أن صناعة الحرير كانت إحدى الصناعات ذات القيمة المضافة العالية لأن الحرير الخام كان ينتج في الريف، حيث كانت سلسلة جبال سيرا نيفادا توفر مناخاً مواتياً لنمو شجرة التوت. وقد ذكر الجغرافيون ثلاثة آلاف مزرعة لدودة القز حول جيان Jaen وثمانمئة ورشة في المرية Almeria. وكان الحرير يصدّر خاماً ومشغولاً في شكل أقمشة مطرزة غالية ومنسوجات أخرى. وكانت المنتجات الكتانية والقطنية والصوفية تصدّر هي الأخرى، فيما كان الحرير والصوف يصدّران في شكل سجاد. ويبدو أن الصادرات إلى الدول المسيحية نمت سريعاً بعد العام ١١٠٠[٣].

وتذكر كونستابل Constable الجلد والورق والخزف كأمثلة لصادرات مصنعة مهمة أخرى من الأندلس. ولم تكن الأندلس تصدّر الورق وحسب، بل كانت أيضاً تجمعه بجلد عالي النوعية في شكل كتب غالية[٤]. وتذكر كونستابل أدلة تجارية من هذه الفترة تنصح التجار بألا يستثمروا في "الكتب الفلسفية، إذ لا يشتريها إلا الحكماء والعلماء، وغالبيتهم فقراء وأعدادهم قليلة"[٥]. وكان للورق سوق رائج بين البيروقراطيين والتجار الذين كانوا يحتاجونه لسجلاتهم ومراسلاتهم.

تزامن استرداد(٤) قشتالة وأراغون لمعظم شبه الجزيرة الأيبيرية، الذي بدأ في النصف الأول من القرن الثالث عشر مع بعض التحولات المهمة في نمط تجارتها واتجاهها. وكما تشير كونستابل، فإن التغير الأهم تمثل في تراجع الحرير وصعود

(٤) راجع حاشية سابقة للمترجم حول مفهوم "استرداد" الأندلس، في مقابل مفهوم "سقوط" الأندلس [المترجم].

الصوف باعتباره السلعة التصديرية الرئيسة من المنطقة. وقد تراجعت صناعة الحرير الإسلامية جزئياً بسبب تفرق قوتها العاملة الماهرة، لكن في المقام الأول بسبب المنافسة من مركز لوكا Lucca الإيطالي الناشئ، والوصول الأسهل إلى إمدادات الشرق الأقصى بسبب أفول بيزنطة بعد الحملة الصليبية الرابعة في العام ١٢٠٤ وإرساء السلام المغولي. وأدخل الحكام الجدد صناعة الصوف باستيراد أغنام المارينو من شمال أفريقيا إلى سهول قشتالة، وهو تجديد بالغ الأهمية، ونمت هذه الصناعة سريعاً، وأخذت تزوّد المدن الفلمنكية بالمادة الخام التي كانت تحتاجها لصناعاتها المزدهرة. وأصبح الحديد أيضاً سلعة تصديرية جديدة مهمة، فيما استمرت بعض الصادرات التقليدية مثل زيت الزيتون، رغم التحول من الحكم الإسلامي إلى الحكم المسيحي(٥). واستمرت تجارة العبيد، باستثناء أنه نتيجة لتقدم الاسترداد، أصبح الأسرى المسلمون هم الذين يُصَدّرون إلى الأراضي المسيحية، بدلاً من تصدير السلاف الوثنيين والأسرى المسيحيين إلى العالم الإسلامي[٦].

وكما رأينا، فقد شهدت بداية هذه الفترة وقوع شمال أفريقيا ومصر وسوريا وفلسطين تحت حكم سلالة فاطمية قوية (٩٦٩-١١٧١)، أقامت خلافة شيعية بديلة في القاهرة نِدا للخلافة العباسية التي كانت لا تزال باقية في بغداد والعراق. وعلى الرغم من البدايات الرائعة للدولة الفاطمية، فإنها تفككت تدريجياً تحت ضغط ثورات البدو والحرب مع البيزنطيين والصليبيين والخصومات العرقية داخل الجيش. وأخيراً، سقطت الدولة الفاطمية في العام ١١٧١ على يد البطل الكردي صلاح الدين الأيوبي الذي جنّد موارد مصر لحرب الصليبيين، وهزمهم أخيراً في العام ١١٨٧ في معركة حطين الحاسمة التي أدت إلى استعادة بيت المقدس وأغلب الأراضي الإسلامية

(٥) ازدهرت صناعة زيت الزيتون في الأندلس الإسلامية لأن المسلمين كانوا يستخدمونه في طعامهم، في مقابل استخدام المسيحيين لدهن الخنزير [المترجم].

المقدسة. أسس صلاح الدين الدولة الأيوبية التي حكمت مصر وسوريا وفلسطين حتى منتصف القرن التالي. وتمثلت نقطة الضعف في هاتين الدولتين في الأعباء التي فرضتاها على الزراعة وبقية الاقتصاد بسبب الحاجة إلى الاحتفاظ بجيوش كبيرة. وكان الضباط يُمنحون إقطاعات عسكرية، كانت قصيرة الأمد في عهد الفاطميين، لكنها أصبحت وراثية في عهد الأيوبيين. ولم ترتفع العائدات من ضرائب الأرض مع ارتفاع الإنفاق، ولذلك فُرِضت ضرائب ثقيلة جداً على الصناعة والتجارة. وهكذا ضعفت دولتا الفاطميين والأيوبيين وانهارت بفعل الإنهاك الذي فُرِض على نظام الدخل فيهما بسبب متطلبات جيوشهما الكبيرة والمنفلتة تماماً.

وفي العام ١٢٥٠، نفذ الجنود العبيد الأيوبيون المعروفون باسم المماليك، انقلاباً على السلطة، أبقاهم- للعجب- في الحكم إلى أن أُدْمِجت مصر في الإمبراطورية العثمانية في العام ١٥١٧. عرقياً، كانت هذه الكتائب تركية قبشاكية ولاحقاً شركسية، إضافة إلى شرذمة من الألبان والمجريين وغيرهم من أبناء أوروبا الوسطى والشرقية. كان هؤلاء الجنود يُسْبَوْن ويُشْتَرَوْن في عقدهم الثاني من العمر، ثم يُعطَون تدريباً عسكرياً صارماً قبل أن يُعتَقوا و"يتخرجوا" وينضموا إلى قوات النخبة بالجيوش. ولم يكن بمقدور أبناء المماليك أن يصبحوا مماليك أصلاء، لأنهم لم يقضوا صباهم في السهول ولم يُشتَروا عبيداً. ولذلك يطلق على المماليك اسم "أرستقراطية عسكرية من جيل واحد". وشغل منصب السلطان نفسه ضباط كانوا يختارون عبر عملية تنافسية تضمنت المكائد والاغتيالات بين فصائل تجمعت حول أمراء أو قادة عسكريين متنافسين. ليس غريباً أن يكون الناجون من هذه العملية الداروينية حكاماً متمكنين جداً في أغلب الأحيان[٧]. وقد توطدت مؤسسات الدولة المملوكية بقوة في عهد القائد والمدير الموهوب والنشط جداً السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) ومعاصره ورفيقه في السلاح

السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩-١٢٩٠). ونجح الرجلان في دمج النظام العسكري المملوكي القائم على "رجال السيف" مع البيروقراطية المدنية القائمة بالدرجة الأولى على "رجال القلم" الأقباط والنظام القضائي لعلماء الدين المسلمين أو "رجال العمامة" في دولة مركزية عالية الكفاءة امتدت من النيل إلى الفرات واستطاعت أن تقاوم كل الدخلاء لأكثر من قرنين ونصف القرن.

كانت مكافأة الضباط والجنود تجري عبر منحهم ريوع من "إقطاعات" غير وراثية لم تكن متجاورة ولم تتطور إلى نظام إقطاعي من النوع الغربي. وكما سنرى، فقد ترتب على ذلك نتائج مهمة بعد قرن. وظلت العائدات من تجارة التوابل مصدراً مهماً للدخل. ويتمثل الإنجاز التاريخي الرئيس للمماليك- بلا شك- في هزيمتهم للمغول في معركة عين جالوت في فلسطين في العام ١٢٦٠ التي وضعت حداً لتقدمهم في العالم الإسلامي. ويرجع إليهم الفضل أيضاً في طرد الصليبيين من معاقلهم الباقية في أنطاكية وطرابلس وعكا. وبعد كارثة سقوط بغداد أمام المغول في العام ١٢٥٨، تولت القاهرة قيادة العالم الإسلامي وصارت مركز فنه وعمارته وتعليمه، وكذلك مقر الخليفة العباسي الذي أعطى الشرعية لحكم سلاطين المماليك. وبذلك يستحق المماليك بلا نزاع لقب "منقذي الإسلام" الذي منحه لهم ابن خلدون نفسه. غير أن تجديد صفوف المماليك، وفقاً لمنطق نظامهم الاجتماعي الغريب، كان يتطلب استمرار تدفق دماء جديدة منهم بشراء العبيد الصبية من الخلفيات العرقية المفضلة. ولذلك كانت التجارة مع مصدر هؤلاء العبيد عبر الدردنيل ضرورية لنظامهم، ولو فقط لإعادة إنتاج النظام، بعد أن قطع نواب الخان المغولي[٦] طرق الإمداد البرية.

(٦) نائب الخان أو الخان الثاني، كما سيرد لاحقاً، هو اللقب الذي اتخذه الحكام المغول لإيران والعراق بعد تفكك الإمبراطورية المغولية [المترجم].

نتحول فيما يلي إلى القوى التي سيطرت أخيراً على تجارة البحر الأبيض المتوسط، وهي الدول المدينية البحرية بشبه الجزيرة الإيطالية. بالنظر إلى الموقع المتوسط لهذه المدن في البحر الأبيض المتوسط واتصالها بالاقتصاد الأوروبي المتنامي عبر ممرات الألب، لا يفاجئنا أن تلعب إيطاليا هذا الدور المهم في هذه الفترة. كان نمو السكان والإنتاج الزراعي والمراكز الحضرية في أوروبا يعني سوقاً مربحاً للسلع الفاخرة الشرقية التي كان التجار بشبه الجزيرة الإيطالية مؤهلين لتوفيرها في مقابل الصوف والفضة والمنتجات الأولية الأخرى. وأصبحت المدن الإيطالية الشمالية مثل ميلان وبافيا مراكز صناعية ومصرفية مهمة، تعززها التجارة العابرة لجبال الألب. فيما شكّلت المدن الساحلية أمالفي وباري وبيزا وجنوى، وعلى الأخص البندقية، قصص النجاح الأروع في هذه الفترة.

كانت وضعية الحكم الذاتي التي تمتعت بها الدول المدينية الإيطالية إحدى السمات المهمة التي مكّنتها من التركيز على التجارة والنشاط الاقتصادي، مع التخلص من أعباء الضرائب والتدخل الحكومي في النظم السياسية المكرسة لأهداف أخرى، كما كانت الحال بوضوح في العالم الإسلامي. فقد كانت السيادة الرسمية على المنطقة موزعة بين الإمبراطور البيزنطي والإمبراطور الروماني المقدس والبابا، ما مكّن البندقية والمدن الأخرى من ممارسة الاستقلال الفعلي عن طريق الدبلوماسية الماكرة واستخدام القوة من حين إلى آخر. وبذلك أثبت التفكك السياسي لأوروبا الغربية من القرن الخامس فصاعداً أنه كان على المدى البعيد مصدراً لميّزة تنافسية[٨].

ثمة عامل آخر أفادت منه الدول المدينية وهو الحملات الصليبية. فبعد توسع الفايكنغ في شمال المحيط الأطلسي والتوسع المسيحي في أيبيريا، تولدت حماسة عامة لصد التقدم الإسلامي على الإمبراطورية البيزنطية واسترداد الأراضي المقدسة نيابة عن

العالم المسيحي. دعا البابا أوربان الثاني في كليرمونت في العام ١٠٩٥ إلى الحملة الصليبية الأولى، وفي البداية حققت الحملة نجاحاً كبيراً بانتزاع بيت المقدس من الفاطميين في العام ١٠٩٩ وتأسيس عدة ممالك صليبية في فلسطين. وإلى جانب جند الصدام بالقوات الصليبية التي تشكلت في غالبيتها من أبناء النبلاء النورمنديين أو الألمان المتلهفين إلى اقتطاع إمارات إقليمية لأنفسهم في الشرق، شاركت الدول المدينية الإيطالية بقوة، وربحت كثيراً من المشروع، حيث وفرت النقل والخدمات المالية، وفي بعض الأحيان الدعم البحري المباشر. وفي المقابل، تم تعويضهم بامتيازات تجارية في سوريا وفلسطين.

بدأت البندقية وجودها المجيد ككيان سياسي مستقل على مدى اثني عشر قرناً، بداية متواضعة تماماً، حيث كانت تتعيش على النقل البحري والصيد في البحيرات. وكان النشاط الاقتصادي الرئيس فيها هو استخراج الملح وتصديره إلى المدن الداخلية. ثم أخذ البنادقة يولون وجوههم باطراد نحو البحر، مستخدمين الأخشاب المتوفرة بسهولة في صنع السفن والمراكب. وقد كوفئوا على ولائهم لبيزنطة بامتيازات تجارية جعلتهم نقطة عبور للحرير والتوابل القادميّن من الشرق إلى المدن الداخلية وإلى أوروبا ما وراء الممرات. وباستخدام أسطولها لكل من التجارة والحرب، وسّعت تلك الدولة المدينية نفوذها تدريجياً إلى الجنوب في الساحل الدالماشي(٧) والأدرياتيكي، وهناك كان العبيد المتوفرون للتصدير إلى الشرق مصدراً آخر للربح. كما كوفئ البنادقة على دعمهم للإمبراطور البيزنطي

(٧) دالماشيا أو دالماسيا Dalmatia منطقة تاريخية في دولة كرواتيا الحالية تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي [المترجم].

ضد القوة النورمندية الصاعدة في جنوب إيطاليا بالمرسوم الذهبي[٨] في العام ١٠٨٢ الذي أعطى التجار البنادقة وصولاً معفياً من الجمارك إلى الإمبراطورية. وكانت الجمهورية في طريقها لأن تصبح "ملكة الأدرياتيكي".

يقدّر فريدريك لين Frederick C. Lane عدد السكان في العام ١٢٠٠ بنحو ثمانين ألف نسمة لمنطقة البحيرة كلها، ثم ارتفع إلى ضعف ذلك العدد بعد قرن[٩]. وبلغ عدد سكان المدينة نفسها في العام ١٣٠٠ زهاء مئة وعشرين ألفاً، ما جعلها أكبر من باريس في ذلك الوقت. (كانت أعداد السكان بميلان وفلورنسا ونابولي وباليرمو مماثلة للبندقية، ما جعل شبه الجزيرة الإيطالية أكثر المناطق في أوروبا الغربية من حيث نسبة الحضر.) وحتى في نحو العام ١٠٠٠، لوحظ أن البندقية كانت متفردة بكوّنها "المدينة الأولى في العصور الوسطى التي تعيش على التجارة وحدها"[١٠]. فكانت تستورد القمح والنبيذ وزيت الزيتون لتزويد المدينة والمناطق المحيطة باحتياجاتها. وإبان القرن الثاني عشر وسّعت البندقية قوتها ونفوذها في شرق البحر الأبيض المتوسط. فمن ناحية ساعدت في الإبقاء على الإمبراطورية البيزنطية في وجه تهديدات النورمنديين والمسلمين، ومن ناحية أخرى نهبت الإمبراطورية وانتزعت منها امتيازات تجارية. وبلغت هذه النشاطات أوجها في الحملة الصليبية الرابعة التي نهبت القسطنطينية في العام ١٢٠٤. وكانت المكافأة التي حصلت عليها البندقية ثلاثة أثمان الإمبراطورية اللاتينية الجديدة وغنائم هائلة. وأخذت البندقية نصيبها من الأراضي في شكل جزيرة كريت، ووضعت قواعد بحرية في أماكن إستراتيجية في بحر إيجة والبحر الأيوني. كما تمتع البنادقة بميّزة كبرى

(٨) المرسوم الذهبي Golden Bull ختم ذهبي كان يستخدم لختم الأوامر الصادرة من الأباطرة البيزنطيين، ولاحقاً ملوك أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة، وتدريجياً أصبح المصطلح يشير إلى المرسوم أو الأمر الإمبراطوري نفسه، وليس الختم وحسب [المترجم].

أخرى هي حرية الوصول إلى البحر الأسود الذي كانت البندقية محرومة منه في السابق.

أصبحت البندقية مؤهلة لدور الوسيط بين أوروبا الغربية الآخذة في النمو والازدهار من ناحية، والعالم الإسلامي من ناحية أخرى، وكذلك الصين عبر الطريق البري نتيجة لوصولها إلى البحر الأسود ونتيجة للسلام المغولي الذي عمّ العالم بعد ذلك بقليل. وكان هناك طلب متنامي على الفلفل والتوابل الأخرى، وكذلك إمدادات القطن والحرير الخام للصناعات الأوروبية. وكان ثمن هذه الواردات يُدفع بالفضة الآتية من المناجم الجديدة المكتشفة في أوروبا الوسطى وأيضاً بالأقمشة الصوفية من فلندرة[٩] وفلورنسا، فضلاً عن تشكيلة متنوعة من المنتجات الأخرى المصنعة. وعلى الرغم من حربها المتقطعة مع الأيوبيين، حافظت البندقية على علاقات تجارية معهم، ولاحقاً مع المماليك. وإضافة إلى تجارة العبور من هذا النوع مع المشرق، حققت البندقية أيضاً أرباحاً كبيرة من السيطرة على تجارة الملح والقمح لأغلب شمال إيطاليا. وتمكنت من استخدام قوتها البحرية لفرض قوانين ملاحة صارمة، أوجبت على معظم الواردات إلى شمال الأدرياتيكي العبور من البندقية. وسيطرت البندقية أيضاً على معظم تجارة الشحن المحلية في بحر إيجة والبحر الأيوني. وكانت البندقية تحصل على القمح من صقلية وكريت، وكذلك من أماكن بعيدة مثل البحر الأسود، على نحو ما فعلت أثينا في العصر القديم.

(٩) منطقة تاريخية تقع على أجزاء من بلجيكا وفرنسا وهولندا الحالية، تأسست في العام ٨٦٢ ككونتية في غرب فرنسا، وتتابع عليها الغالبون الأجانب، حتى انتقلت تبعيتها في العام ١٣٨٤ إلى دوقية بيرغندي، ثم في العام ١٤٧٧ إلى آل هابسبرغ، وفي العام ١٥٥٦ إلى ملوك إسبانيا الهابسبرغيين، قام أهلها بثورات كثيرة ضد الحكم الإسباني، قمعها الإسبان بوحشية، وكان من أشهر قاهريهم الدوق ألبة "مطرقة ثوار فلندرة" [المترجم].

كان المنافس الأكبر للبندقية طوال هذه الفترة وما بعدها هو جنوى الواقعة على الحافة الشمالية للساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية. وجنوى الحبيسة في جبال الأبنين Apennines كانت بدايتها أكثر تواضعاً من البندقية، لأنها لم تكن تمتلك حتى ملح البحيرات كقاعدة للنجاح التجاري. وقد شدّد روبرت لوبيز في عدد من الأعمال على دور الحرب والغنيمة من العرب في غرب البحر الأبيض المتوسط، اللذين وفرا "التراكم البدائي"[١٠] المطلوب لإطلاق جنوى على طريقها المدهش إلى التوسع التجاري والمالي. وكانت بيزا منافساً مبكراً على السيطرة على ساردنيا وكورسيكا، لكَنَّ المدينتين تعاونتا في غارات مربحة على الموانئ الإسلامية بشمال أفريقيا. وفي مقابل تعاون جنوى المبكر مع الصليبيين، حصلت على مستعمرات وامتيازات تجارية في الشرق أيضاً. وشاركت كل المدن البحرية الإيطالية الرئيسة في تجارة البحر الأبيض المتوسط، ومنها التوابل والحرير وتجارة العبور، فضلاً عن تصدير المواد الأولية الصناعية، كالقطن والشب من سوريا وفلسطين والصوف من شمال أفريقيا لصناعة الأقمشة التوسكانية المزدهرة.

شهد النصف الأول من القرن الثالث عشر هيمنة البندقية في الشرق والبحر الأسود، فضلاً عن مكاسبها من الحملة الصليبية الرابعة في العام ١٢٠٤. لكن الجنويين دعموا الهجوم البيزنطي المضاد الذي استرد القسطنطينية لسلالة ميخائيل باليولوج في العام ١٢٦١. وحصلوا في مقابل ذلك على مكافآت استعمارية وتجارية مربحة على حساب البندقية. فحصلت جنوى على مراكز تجارية في البحر الأسود وبحر مرمرة وشواطئ بحر إيجة. ويذكر لوزاتو Luzzatto أن "التجارة الجنوية اتسع مداها كثيراً، وامتدت من القرم إلى مضيق جبل طارق، وفي أواخر القرن الثالث عشر إلى طرق المحيط فيما وراء المضيق"[١١]. وجاءت ذروة التجارة والدخل الجنويان إبان العقد الأخير

(١٠) راجع حاشية سابقة للمترجم حول مفهوم "التراكم البدائي" [المترجم].

من القرن الثالث عشر. ويذكر لوبيز أن العائدات من الضرائب على المبيعات التجارية ارتفعت أكثر من أربعة أضعاف من العام ١٢٧٤ إلى العام ١٢٩٣، وكانت سبعة أضعاف دخل التاج الفرنسي المعاصر في عهد فيليب أوغسطس[١٢]. وارتفعت العائدات من المحطات التجارية فيما وراء البحار في بيرا(١١) والإسكندرية والأماكن الأخرى ذات الموقع الإستراتيجي إلى "حجم يقترب من الوطن الأم نفسه". ونفذت جنوى رحلات بحرية رائدة عبر مضيق جبل طارق إلى إنجلترا وفلندرة، وتبادلت السلع الشرقية والبحر متوسطية مع الصوف الإنجليزي والأقمشة الفلمنكية، وأضافت بذلك طريقاً بحرياً وحّد شمال أوروبا وجنوبها. ومن حيث عدد السكان، لم تتجاوز جنوى أبداً سقف المئة ألف نسمة في المدينة نفسها، وربما أربعة أو خمسة أضعاف هذا العدد في المناطق المحيطة. ولذلك كانت دائماً أصغر من منافسها الكبير- البندقية- لكنها كانت قريبة من باريس وميلان ومدن أوروبية كبرى أخرى.

ثمة سؤال مثير يثيره النزاع الطويل والمرير بين المسيحيين والمسلمين في أثناء الحملات الصليبية وتأثيره على الاستعداد للتجارة مع العدو. والإجابة واضحة لا لبس فيها، فعلى الرغم من المراسيم البابوية التي حظرت تزويد المسلمين بمواد الحرب، قدمت لهم المدن البحرية الإيطالية الأسلحة ومواد بناء السفن وغيرها من السلع، وكان الجنويون على وجه الخصوص يقدمون المجندين الرقيق من البحر الأسود لقوات النخبة المملوكية التي شاركت في طرد بقايا الممالك الصليبية من المناطق الساحلية بسوريا وفلسطين[١٣]. واكتملت تلك المهمة في العام ١٢٨٩ حين استعادوا طرابلس، وفي العام ١٢٩١ حين استعادوا المعقل المسيحي الأخير في الأراضي المقدسة والميناء الرئيس في المنطقة في ذلك الوقت، وهو عكا. وكانت الكنيسة تبيع الإعفاء من هذا

(١١) بيرا Pera (يعني في اليونانية "عَبْر") هو الاسم البيزنطي للجزء من مدينة إسطنبول التركية الواقع في الجانب الأوروبي، يسمى حالياً بايوغلو Beyoglu [المترجم].

الحظر العام، ما قوّض مكانتها الأخلاقية بعض الشيء، وفرض تكلفة إضافية على التجار الأوروبيين، لكن المماليك كانوا مستعدين لتعويضهم عن ذلك. وبهذه الطريقة كان إخوة الصليب في المدن البحرية الإيطالية يكتسبون هيمنة تجارية كاملة تقريباً على البحر الأبيض المتوسط وداخل القسطنطينية نفسها، ما عجل بالانهيار الطويل "لروما الشرقية" وهدد السيادة الاقتصادية للعالم الإسلامي التي كانت لها الغلبة مع بداية الألفية الثانية.

أدت الحملات الصليبية أيضاً إلى نقل الأفكار والتقنية بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وقد أفاد العالم المسيحي من ذلك على المدى البعيد. ومن الأمثلة الشهيرة لذلك ما يسمى بالنظام العددي العربي الذي نشأ أصلاً في الهند، كما يعرف كل من المسلمين والأوروبيين. أزاحت الأعداد الجديدة الأعداد الرومانية تدريجياً، وأخذ التجار الأوروبيون يستخدمونها لأغراض التجارة. وبوجه عام، كما يقول ألفريد ليبر، فإن "الإسهام الأكبر للعالم الإسلامي في الحياة الاقتصادية بالقرون الوسطى تمثل في تطوير أساليب تجارية تعتمد على الكتابة والتسجيل[١٤]. وقد نتج ذلك عن المستوى المرتفع لمعرفة القراءة والكتابة بين التجار الشرقيين في ذلك الوقت، الذي تعزز بدوره بوفرة مواد الكتابة ورخصها نسبياً على مدى فترة طويلة في هذا الجزء من العالم.... وهذه القدرة... لعبت دوراً أهم في تطوير أساليب وطرق متفوقة للدفع وتمويل التجارة الدولية". ثمة ميّزة أخرى أفادت الممارسات التجارية الحديثة، أكدها ليبر وجانيت أبو لغد، وهي أن الإسلام فيه ميل واضح نحو التجارة والتجار، وهو أمر غير مستغرب بالنظر إلى أن مكة كانت مركزاً تجارياً مهماً في زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي اشتغل هو نفسه بالتجارة[١٥].

لقد ذكرنا مثال الحوالة التي رآها ابن حوقل في أوداغوست. كانت هذه الأدوات تستخدم على نطاق واسع في العالم الإسلامي، من جانب كل من التجار والبيروقراطيين الإمبراطوريين الراغبين في تحويل العائدات من المقاطعات إلى العاصمة، بداية من القرن الثامن على الأقل[١٦]. وبالمثل، ترجع جذور عقد المضاربة(١٢) الذي لعب دوراً مهماً في تمويل تجارة البحر الأبيض المتوسط إلى سوابق تاريخية واضحة في عقد القِراض(١٣) الإسلامي الأقدم(١٤). ويقر ليبر بصعوبة العثور على أدلة حول أدوات معينة انتقلت بين الثقافات[١٧]، لكن يظل من الممكن نظرياً في كل الأحوال، كما يشير جون بريور John Pryor، أن تكون العقود المتماثلة مثل عقد المضاربة قد ظهرت في بلاد مختلفة "كاستجابة مستقلة لاحتياجات اقتصادية متماثلة في أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة"[١٨]. واستخدام الحوالات في إمبراطورية تانغ الصينية يمكن أن يُتخذ دليلاً يؤيد وجهة النظر الأخيرة، مع أن ليبر يشير إلى أن التجار المسلمين الذين عملوا في الصين ربما تعلموا من خبرة الصينيين ونقلوا المعرفة التي اكتسبوها إلى أوطانهم[١٩].

يذهب أودوفيتش إلى أن عقد القِراض هو الأصل المؤكد الذي تطور منه عقد المضاربة، ويدفع بأن التجار الغربيين تعلموا هذه الأساليب وغيرها من زملائهم المسلمين من القرن الثامن فصاعداً[٢٠]. وفي المقابل، يرد بريور عقد المضاربة إلى آلية "التضامن" societas الرومانية و"عقد المضاربة" chreokoinonia البيزنطي، وكذلك

---

(١٢) عقد المضاربة commenda contract عقد شراكة بين اثنين أو أكثر، يقدم أحدهما مالاً والآخر عملاً، ويكون توزيع الربح بينهما بحسب الاتفاق أو العقد [المترجم].

(١٣) القِراض عقد بين اثنين يتاجر أحدهما بمال الآخر لقاء حصة أو نسبة متفق عليها [المترجم].

(١٤) من أجل رواية تحليلية حديثة لتمويل التجارة في البندقية، انظر Gonzalez de I ma (2005). وتذكر جونزاليز في تعريفها أن "عقد المضاربة أو الكوليجانتيا collegantia كما أسماه البنادقة كان اتفاق شراكة يقدم المستثمر بمقتضاه أموالاً مع قبول خطر خسارتها وكذلك الحصول على عائد بناء على التجارة التي يشتغل بها التاجر" (ص ٥).

القِراض الإسلامي وعقد العسقى isqa' اليهودي، ويَخلُص إلى أن عقد المضاربة ظهر نتيجة للدمج الأوروبي الإبداعي لمصادر رومانية وبيزنطية وشرق أوسطية. وعلى كل، فمن المؤكد أن التجار الغربيين أتيحت لهم الفرصة للتعلم من نظرائهم المسلمين[٢١]. وقد لاحظ زائر مسلم إلى عكا في العام ١١٨٤ أن الكَتبة التجاريين المسيحيين هناك كانوا يستخدمون اللغة العربية لإمساك سجلات الجمارك، كما كان تجار بيزا يتلقون خطابات باللغة العربية من مراسلين تونسيين في العام ١٢٠٠[٢٢]. وأخيراً، يشير ليبر إلى وجود أدلة لغوية دامغة عل تأثير الممارسات التجارية الإسلامية على التجارة الأوروبية إبان القرون الوسطى، حيث ترجع أصول كلمات أوروبية مثل douane [ديوان](١٥) وtariff [تعريفة](١٦) وtraffic [مرور](١٧) وrisk [خطر](١٨) وfondaco [فندق](١٩) إلى لغات شرقية[٢٣].

والسكر أحد الأمثلة الشهيرة الأخرى لتأثير العالم الإسلامي على الغرب، الذي كانت له نتائج ضخمة على ثلاث قارات على الأقل بعد عدة قرون. وفي ذلك تقول باربرا سولو Barbara Solow إن المسيحيين ما أن تعرفوا على مذاق "الملح الحلو"، حتى زرعوه بأنفسهم، في البداية في مستعمراتهم الصليبية في الشرق، وفيما بعد في كريت وقبرص وصقلية[٢٤]. ولسوء الحظ، ارتبطت زراعة السكر بالعبودية في العالم الإسلامي، وكذلك استخدم المسيحيون العبيد لزراعته

(١٥) هيئة تحصيل الجمارك في اللغة الفرنسية والهولندية [المترجم].
(١٦) كلمة traffic مستخدمة بصور مختلفة في لغات أوروبية مختلفة [المترجم].
(١٧) يرجع البعض هذه الكلمة المستخدمة في الكثير من اللغات الأوروبية إلى الأصل العربي "ترويج"، ومنهم صلاح غريميش في "معجم الكلمات الفرنسية من أصل عربي" [المترجم].
(١٨) يرد البعض هذه الكلمة إلى الأصل العربي "رزق" [المترجم].
(١٩) كلمة إيطالية [المترجم].

وأنشأوا مزارع سكر كانت السلف المباشر لمزارع العبيد في العالم الجديد لاحقاً[٢٠]. وبحلول أوائل القرن الخامس عشر كانت زراعة السكر قد انتشرت غرباً إلى الممتلكات الأيبيرية في المحيط الأطلسي مثل ماديرا[٢١]، وكان العبيد في هذه الحالة يُستورَدون من أفريقيا. ومن ذلك الوقت فصاعداً "ارتبط الاستعمار الأوروبي بالسكر، وارتبط السكر بالعبودية، وارتبطت العبودية بالسود"[٢٥].

المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي إبان الفترة ١٠٠٠–١٣٥٠

كانت تجارة البحر الأبيض المتوسط ترتبط بتجارة المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي عبر البحر الأحمر والخليج العربي، هاتين القناتين التاريخيتين لتدفق التوابل إلى أوروبا. وكانت هذه التوابل الشرقية تأتي إلى الأسواق الغربية من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر على أيدي جماعة من التجار اليهود استقرت في الفسطاط (القاهرة القديمة)، تمتعت بارتباطات واسعة من إسبانيا إلى الهند. والأوراق التجارية وأوراق المراسلات الأخرى التي تركتها هذه الجماعة في الفسطاط التي تسمى "أوراق الجنيزا"[٢٢]، مكّنت غويتن من بناء وصف ثري مفصل لأنشطتهم الاقتصادية

(٢٠) راجع حاشية سابقة حول السبق العربي الإسلامي المشين- في هذه الحالة- إلى استخدام العبيد السود في مزارع السكر، وهو المثال الذي ستحاكيهم فيه الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية في الأمريكتين بعد قرون، الذي سيكون القوة الدافعة لتجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي بداية من القرن الخامس عشر [المترجم].

(٢١) ماديرا Madeira مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي في شمال غرب أفريقيا، تتبع البرتغال، عاصمتها فونشال، عرفها الرومان أولاً، ثم أعاد البرتغاليون اكتشافها في العام ١٤١٩، استغلوها أولا في توفير الخشب، ثم في إنتاج السكر [المترجم].

(٢٢) أوراق الجنيزا Geniza papers مجموعة من الأوراق والوثائق باللغات اليهودية تستخدم الأبجدية العبرية (العربية- اليهودية والفارسية- اليهودية والإسبانية- اليهودية واليديشية)، لا يجوز التخلص منها أو إتلافها وفقاً للديانة اليهودية لأنها تحتوي اسم الله، ولذلك كانت تخزن في غرفة منفصلة في الكنيس أو المعبد لأجيال، ثم تدفن في مقابر، ومن هنا جاء اسمها "جنيزا" الذي يشترك في الأصل مع كلمة "جنازة" العربية. وتعتبر الجنيزا التي عثر عليها في كنيس ابن عزرا في القاهرة من أهم مجموعات الجنيزا في العالم [المترجم].

والثقافية[٢٦]. فاتضح أنهم كانوا يأتون بالفلفل والتوابل الأخرى من الهند شرقاً، وأنهم تاجروا أيضاً على نطاق واسع في الحرير والكتان والسلع الأخرى، وبخاصة مع موانئ شمال أفريقيا. وقد ازدهروا وراجت تجارتهم في عهد الحكام العباسيين والفاطميين، ثم تراجعت بسبب المنافسة من التجار الإيطاليين والمناخ المحموم للحملات الصليبية والرد الإسلامي عليها.

ونرى في هذه الفترة إشارات إلى مسيحيين حاولوا تجاوز الوسطاء المسلمين والوصول مباشرة إلى التوابل الشرقية. وكان من أنشط هؤلاء الصليبي سيئ السمعة أرناط الشاتيوني(٢٣) الذي انتهك الهدنة مع المسلمين مرات كثيرة بالإغارة على قوافلهم التجارية. وقد استشاط البطل الكردي صلاح الدين غضباً من غارة نفذها أرناط على الحجاز ببلاد العرب في العام ١١٨٢، استولى فيها على ايلات وهاجم سفناً إسلامية في البحر الأحمر. اعتبر صلاح الدين ذلك تهديداً للحج والمدينتين المقدستين مكة والمدينة، وأيضاً لتجارة البحر الأحمر المربحة. وفي النهاية، دُمّر أسطول أرناط، وتشرف أرناط بأن قطع صلاح الدين شخصياً رأسه بعد أن أسره في معركة حطين في العام ١١٨٧[٢٧].

(٢٣) أرناط الشاتيوني Reynaud de Chatillon نسبة إلى بلدة شاتيون سير لوار Chatillon-sur-Loire بشمال وسط فرنسا (من نحو العام ١١٢٥ إلى ٤ يوليو ١١٨٧) فارس خدم في الحملة الصليبية الثانية وبقي في الأراضي المقدسة بعد هزيمته، تولى إمارة أنطاكية من العام ١١٥٣ إلى العام ١١٦٠، ومن خلال الزواج أصبح أمير منطقة شرق نهر الأردن، اشتهر بنقضه للعهود، ومن ذلك خرقه لهدنة مدتها أربعة أعوام مع صلاح الدين الأيوبي في العام ١١٨٥، وهجومه على قافلة ضخمة للمسلمين كانت في طريقها من القاهرة إلى دمشق، ولذلك أقسم صلاح الدين على أن يقتل أرناط حال وقوعه في يده، وفي العام ١١٨٧ غزا صلاح الدين مملكته وهزم الصليبيين في موقعة حطين، وكان أرناط وملك بيت المقدس من بين أسرى صلاح الدين، فأمر صلاح الدين بأن يؤتى بهما إلى خيمته، ثم قطع رأس أرناط بسيفه [المترجم].

يبدو أن صلاح الدين خصّ مجموعة من التجار المسلمين (باستثناء بعض اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام) عُرِفت باسم "الكارم" باستيراد التوابل والسلع الشرقية الأخرى. وقد منحهم حماية مَلكية وامتيازات مالية وحقوقاً حصرية لاستيراد السلع الشرقية عبر البحر الأحمر. ومع أن هؤلاء التجار وصلوا إلى الهند وما بعدها شرقاً، فقد ركزوا حقيقة على قطاع البحر الأحمر من التجارة فقط، حيث كانوا يشترون متطلباتهم من عدن على فم البحر الأحمر التي كان التجار الغوجاراتيون وغيرهم يأتون إليها بالفلفل والمنسوجات القطنية الهندية والتوابل والمنتجات الأخرى مما وراء الهند شرقاً. كانت عدن تابعة لسلاطين اليمن الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين ثم لخلفائه المماليك. وقد ترسخ توازن طويل المدى، ومع أن اليمنيين حاولوا الإفلات من التبعية لمصر، فإنهم لم يجازفوا بالذهاب بعيداً إلى حد إثارة المصريين الأقوى منهم إلى شن حرب واسعة النطاق ضدهم.

كانت عدن سوقاً تجارية مزدهرة في ذلك الوقت، يعمل بها تجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي وما وراءه. وطبيعتها العالمية والأرباح الكبيرة التي كان يمكن تحقيقها هناك تُصوِّرها حياة تاجر عربي قضى أربعين عاماً في الصين. فقد خسر هذا التاجر اثنتي عشرة سفينة في البحر في عاصفة واحدة، لكنه عوض خسارته كلها من أرباح السفينة الثالثة عشر التي كانت تحمل الخزف وخشب الصبار. وكوّن هذا التاجر أيضاً "شركة متعددة الجنسيات" ضمت سبعة أبناء من سبع زوجات في أجزاء مختلفة من العالم كانوا يرسلون إليه السلع في مقابل المنتجات المشرقية والمغربية والفرنجية[٢٨].

كان النقل في أعلى البحر الأحمر يحميه السلاطين المصريون الذين وفروا أيضاً وسائل لتفريغ السلع ونقلها بالقوافل براً إلى النيل ثم بحراً في اتجاه مياه النيل إلى القاهرة. وكان التجار الإيطاليون والأوروبيون الآخرون يُحْتجَزون في "فنادقهم" أو

محطاتهم التجارية في الإسكندرية ودمياط. وكانت مجموعات التجار الرئيسة تنتمي إلى البندقية وجنوى وبيزا ومرسيليا وبرشلونة. واحتجاز التجار الغربيين بهذه الطريقة جعل "شروط التبادل التجاري" لصالح الدولة المصرية ووكلائها من تجار الكارم. ومع ذلك فقد أُعطِي الأجانب ضمانات بالسلامة الشخصية وأمن الممتلكات والأرباح. وقدم المصريون حوافز خاصة وإعفاءات ضريبية للسلع الإستراتيجية، وبخاصة الرقيق القادمين للتجنيد في الجيوش المملوكية. ويبدو أن التجار المسلمين كانوا يدفعون رسوم استيراد نحو ٢٥٪، بينما كان المسيحيون يدفعون عادة ٢٠٪ أو حتى ١٠٪ على سلع معينة[٢٩].

كانت العلاقات التجارية مع الساحل الغربي للهند وسيلان وثيقة وموسعة. وكانت السلعة التصديرية الرئيسة من الهند هي الفلفل الأسود الشهير من مالابار، وظلت الهند المصدر الفريد لهذا المنتج في التجارة العالمية قبل إدخاله إلى سومطرة وجزر إندونيسية أخرى، ربما في أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر. وكانت المنسوجات القطنية السلعة التصديرية الهندية الرئيسة الثانية، وظلت كذلك لقرون تالية، وتركز الإنتاج في المناطق الرئيسة الثلاث: غوجارات والبنغال وساحل كوروماندل. وكانت الهند تصدّر أيضاً منتجات الحديد والصلب، وبالدرجة الأولى الأسلحة، وأنواعاً مختلفة من السلع الأخرى ذكرها ديغبي Digby بالتفصيل[٣٠]. يفند ديغبي الرأي السائد القائل بأن البحر الأحمر حل محل الخليج العربي في هذه الفترة، ويشير إلى التصدير الضخم لسلعة غير عادية، وإن كانت ثمينة، إلى الهند عبر الخليج العربي، وهي الخيول، وتحديداً خيول الفرسان، التي ازداد الطلب عليها بسبب الحرب المستمرة في شبه القارة الهندية وعدم القدرة على تحمل تربية الخيول محلياً. قابل الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة قبائل تركية معها آلاف من الخيول بيعت بدينار

واحد فقط لكل منها، في حين كان السعر في الهند يمكن أن يتجاوز مئتي دينار أو حتى خمسمائة دينار. ويقول ابن بطوطة إن الخيول كانت تصدّر إلى الهند في قطعان كبيرة يضم الواحد منها ستة آلاف حصان أو نحوها[٣١]. وتلك الحكاية كاشفة في جانبين، حيث توضح التجارة الدولية الواسعة في ذلك الوقت، وكذلك فجوات الأسعار الهائلة التي كانت سائدة بين الأسواق. وكانت خيول السباق تُستورد أيضاً من اليمن وعُمان وفارس بأسعار في حدود أربعة آلاف دينار للحصان الواحد. ويقدم الرحالة المغربي معلومات مثيرة عن التجارة في جميع أنحاء العالم الإسلامي والمحيط الهندي في ذلك الوقت وعن الشحن والنقل عبر المحيط، منها معلومات حول أسطول السفن الشراعية الذي أبحر فيه إلى الصين من الساحل الغربي للهند. يقدم وصف ابن بطوطة صورة مذهلة لمدى التجارة والتخصص في عالم ذلك الزمان، حيث كان السكان في القرن الأفريقي يعتمدون كلياً على واردات الأرز والأقمشة من الهند، وكان العبيد الأحباش يُستخدَمون جنوداً بحرية على السفن الشراعية الصينية ومرتزقة بحريين في خدمة حكام الهند المسلمين.

وكما هو معروف فإن كلاً من ماركو بولو وابن بطوطة أذهلتهم جداً ثروة الصين في عهد إمبراطورية يوان المغولية على الرغم من أنها كانت أقل من الأوج الذي بلغته في عهد إمبراطورية سونغ. وثمة تقدير لماركو بولو كثيراً ما يُستشهَد به للواردات اليومية للفلفل في ميناء زايتون (كوانزهو) الفوجياني[٢٤]، وهو أكثر من عشرة آلاف رطل، ما يعطي فكرة عن حجم "سوق الصين" في تلك الأزمان. بل ويذكر بولو أيضاً أنه في مقابل كل سفينة محملة بالتوابل تخرج من الإسكندرية إلى الموانئ المسيحية، كانت مئة سفينة تصل إلى كوانزهو. ويقول ابن بطوطة إنه رأى "مئة سفينة ينك شراعية

(٢٤) نسبة إلى مقاطعة فوجيان الصينية [المترجم].

من الطراز الأول معاً" و"سفناً أصغر لا تحصى" في كوانزهو، وثلاث عشرة سفينة معاً في كاليكوت[٢٥] على ساحل مالابار الهندي. وقدّر ابن بطوطة عدد طاقم إحدى السفن بألف شخص، ستمئة بحار وأربعمئة جندي متخصص، منهم الرماة و"القواسين الذين يقذفون النفط"[٣٢].

كانت السياسة المغولية في الصين فيما يتعلق بالاقتصاد والتجارة في مجملها استمراراً لسياسة إمبراطورية سونغ، فضلاً عن محاولات عرضية لفرض تدخل أكبر من جانب الدولة لتعظيم الدخل والربح. وتوسعت التجارة البرية مع آسيا الوسطى والغرب، كما سنرى في القسم التالي، بصورة ملحوظة نتيجة لفرض السلام المغولي على الممالك البدوية التي سيطرت على السهل في عهد إمبراطورية سونغ. وانتعشت التجارة البحرية مع جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي حتى شرق أفريقيا وميناء كيلوا[٢٦]، وازدادت التجارة مع اليابان وكوريا. كانت اليابان تصدّر عديداً من المنتجات المعدنية، منها خام النحاس والفضة، فضلاً عن السيوف الفولاذية، بينما كانت كوريا تصدّر الآنية الفخارية ومواد الطلاء والسلع النحاسية والجنسة[٢٧] ومواد طبية أخرى. وفي المقابل كانت الصين تصدّر الخزف والمنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات والكتب، وكانت تعيد تصدير التوابل والمنتجات الجنوبية الغريبة، وكذلك كميات كبيرة من النقد النحاسي الذي انتشر كنقد رسمي في اليابان ووفر العرض النقدي للاقتصاد الياباني المتنامي. وتدفق الكتب الصينية إلى اليابان وكوريا أمر لافت للنظر، إذ يشير إلى الانتقال الثقافي إلى هذه البلاد الكونفوشية من بلد المنشأ. وحطام

---

(٢٥) كاليكوت Calicut مدينة وميناء بولاية كيرالا الهندية على ساحل مالابار، اسمها الحالي كوزيكود Kozhikode، كانت من أهم الموانئ التجارية بعالم العصور الوسطى، كانت تسمى أيضاً "مدينة التوابل" [المترجم].

(٢٦) راجع حاشية سابقة حول كيلوا [المترجم].

(٢٧) الجنسة Ginseng عشبة صينية لها استخدامات طبية [المترجم].

السفينة المتجهة إلى اليابان أو الفلبين على ما يبدو الذي يحتوي أكثر من عشرة آلاف قطعة خزف، يعطي إشارات لحجم التجارة الكبير آنذاك[٣٣].

السلام المغولي والتجارة البرية إبان الفترة ١٠٠٠-١٣٥٠

وبعد أن استعرضنا التجارة البحرية لأوراسيا إبان الفترة ١٠٠٠-١٣٥٠ بدءاً من طرفها الغربي في إسبانيا الإسلامية، قد يكون من الملائم أن نقوم "برحلة العودة" براً من الطرف الشرقي بدءاً بإمبراطورية سونغ الصينية. واجهت إمبراطورية سونغ في بداية هذه الفترة دولتين بدويتين مُتَصَيِّنتين قويتين على حدودها الشمالية والغربية، هما دولة الخيتان وسادتها سلالة لياو وإمبراطورية هسي هشيا التانكوتية. سيطر الخيتان "الموالون للمغول" (هذه الدولة هي السبب وراء استخدام مصطلح "كاثاي" Cathay بداية من العصور الوسطى فصاعداً للإشارة إلى الصين في الغرب) على منطقة منشوريا وشرق منغوليا، ولكوّنهم محاربين أشداء، فقد شكّلوا نخبة الدولة متعددة الأعراق التي تضمنت شعوباً بدوية وسكان غابات آخرين، إضافة إلى عدد كبير من السكان المستقرين من المزارعين والحرفيين الصينيين شكّلوا زهاء ٦٠٪ من السكان، فيما شكّل الخيتان أنفسهم وغير الصينيين الآخرين ٢٠٪ لكل منهما[٣٤]. كان الخيتان بوذيين يستخدمون أبجديتهم الخاصة إضافة إلى الأبجدية الصينية، ولم يكونوا "برابرة" بأي حال من الأحوال، على الرغم من أصولهم البدوية السهلية. وامتد سلطان دولة هسي هشيا إلى مناطق قانسو وشينسي(٢٨) وغرب منغوليا. وكان سكانها متنوعين عرقياً، وكان التانكوتيون يشكّلون الطبقة الحاكمة ونخبة الفرسان بالجيش، كما كانت الحال مع الخيتان. وقد أعطى الدولتين موقعهما عبر طرق التجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب عائدات كبيرة من الضرائب على المرور.

(٢٨) قانسو Kansu وشينسي Shensi مقاطعتان صينيتان تقعان في الشمال الغربي للبلاد [المترجم].

وعلى الرغم من التنافس الجيوسياسي والنزاعات المتكررة، كانت للدولتين الحدوديتين علاقات تجارية واسعة مع إمبراطورية سونغ الصينية. فكانت دولة لياو تصدّر إلى الصين الخيول والأغنام والفراء والعبيد والأقمشة والسجاد الصوفي، وأيضاً ما يدعو للدهشة الدروع والأسلحة الحديدية. وكانت الصين تصدّر إلى دولة لياو الحرير والأقمشة المطرزة والشاي والحلي الفضية والذهبية والمنتجات البحرية والأعشاب الطبية والتوابل والمنتجات الأخرى من جنوب شرق آسيا. وإضافة إلى التجارة في منتجاتهم، يذكر شيبا Shiba أن دولة لياو كانت تسيطر على التجارة وتحصل على إتاوات من كوريا وقبائل بدوية أخرى مثل الجورجين والأيغور، وأيضاً من واحتي خوتان وكوشا[٢٩] اللتين كانتا تقدمان اليشب والكهرمان والعقيق والسجاد والأقمشة القطنية والجنسة والسبائك الذهبية والفضية[٣٥]. وكانت السلعة الرئيسة التي احتاجها الصينيون من كل من دولة لياو وهسي هشيا هي الخيول لفرسانهم، وكان تصديرها توقفه الدولة الحدودية بطبيعة الحال في أوقات النزاع. وكانت دولة هسي هشيا في موقف قوي بسيطرتها على ممر قانسو الذي تحيط به الجبال من جهة وصحراء جوبي Gobi من الجهة الأخرى. وكان الملح السلعة التصديرة الرئيسة لدولة هسي هشيا التي سعّت الصين إلى تحجيمها لحماية احتكارها لتلك المادة الأساسية. ليس غريباً- إذن- أن يزدهر تهريب الخيول والملح. وحين كانت الحرب تقطع التجارة بين إحدى الدولتين الحدودتين والصين، لم تكن الدولة الحدودية الأخرى تفوّت الفرصة لاستغلال الموقف. ويذكر شيبا أن أسعار الحرير في دولة هسي هشيا كانت تبلغ أربعين ضعف نظيراتها في الصين في زمن الحرب، ما كان يؤدي إلى صادرات مربحة من دولة لياو[٣٦].

(٢٩) خوتان Khotan وكوشا أو كوجار Kucha واحتان صينيتان تقعان في حوض تاريم غالبية سكانهما من الأويغور المسلمين [المترجم].

لم تستطع إمبراطورية سونغ أن تُخْضِع أياً من الدولتين الحدوديتين، ولذلك حاولت أن "تشتري" السلام منهما بدفع ما يمكن اعتباره جزية فعلية لكليهما. فكانت دولة لياو تحصل منها سنوياً على ثلاثمئة ألف ثوب من الحرير ومئتي ألف أوقية من الفضة، وكانت هسي هشيا تحصل منها سنوياً على سبعين ألف أوقية من الفضة ومئة وخمسين ألف ثوب من الحرير وعشرة آلاف كاتي من الشاي. ويذكر شيبا أن معظم الفضة التي كانت إمبراطورية سونغ تدفعها كانت تعود إلى الصين لتسوية الفوائض التجارية التي كانت سائدة مع الدولتين الحدودويتين. ونحن نعلم أن شروط التبادل التجاري كانت عشرين ثوباً من الحرير أو مئة كاتي (أو مئة وخمسة وعشرين كاتياً) من الشاي في مقابل الحصان الواحد. ونظراً لأن مبادلة الشاي والحرير بالخيول حدثت على مدى أكثر من ألفي عام، فإن سجلات هذه الأسعار النسبية توفر مؤشراً مهماً للعلاقات بين الشعوب البدوية والمستقرة على الطرف الشرقي لأوراسيا، إذا أمكن استعادة المعلومات من السجلات الكثيرة للدولة من إمبراطورية هان إلى إمبراطورية تشينغ.

وإبان العقد الثالث من القرن الثاني عشر، أطاحت قبيلة الجورجين المنشورية بإمبراطورية لياو التي كانت خاضعة لها في السابق، لكن أحد أمراء إمبراطورية الخيتان تحرك غرباً بأتباعه وأسس إمبراطورية القرخطاي (أو "الخيتاي السود") التي تعرف كذلك باسم إمبراطورية لياو الغربية في السجلات الصينية[٣٠]. وتمكن الجورجين أيضاً من طرد إمبراطورية سونغ من شمال الصين ومن عاصمتهم كايفينغ وأجبروهم على

(٣٠) القرخطاي Qarakhitai شعب تانكوتي سيطر على شمال غرب الصين إبان القرن العاشر، أنشا إمبراطورية امتدت من جزر اليابان والمحيط الهادي شرقاً الى جبال الالتاي غرباً ومن بحيرة بيكال شمالاً إلى الحدود الشمالية لإمبراطورية سونغ جنوباً، عرفت باسم إمبراطورية الكيتان أو الخيتان نسبة إلى قبائلهم وعرفت في التاريخ الصيني باسم دولة لياو الغربية [المترجم].

التراجع إلى الجنوب. وأنشا الجورجين دولة جديدة، هي تشين التي أسقطها المغول في القرن الثالث عشر، ومعها إمبراطورية سونغ الجنوبية وهسي هشيا. وقد حافظوا على اقتصاد مزدهر لأكثر من مئة عام واستأنفوا التجارة الكثيفة مع إمبراطورية سونغ الجنوبية وفقاً لنمط العلاقات السابق بين الخيتان والصينيين.

لقد تَصَيّن الخيتان والتانكوتيون والجورجين في الشرق بفعل اتصالهم بالصين، بينما اعتنق الأتراك الغربيون الإسلام بفعل اتصالهم بالفرس والعرب، وواصلت القبائل المغولية بآسيا الداخلية حياتها البدوية الرعوية على السهل. وفي أوائل القرن الثالث عشر دخلوا في اتحاد مركزي قوي بفضل عبقرية تيموجين Temujin الذي أعلن نفسه جنكيزاً خاناً، بمعنى "الحاكم العالمي" في العام ١٢٠٦. غزا أحفاده كامل اليابسة الأوراسية من العراق وإيران وروسيا في الغرب إلى الصين في الشرق، وتأسس بذلك السلام المغولي. غزا المغول الصين في العام ١٢١١ واستولوا على بكين في العام ١٢١٥، لكنهم لم يُخضِعوا إمبراطورية تشين الشمالية إلا في العام ١٢٣٤، وفي ذلك الوقت تحوّل المغول المحبَطون، كما يقول ماكيفيدي وجونز، من "سياسة المذابح لعقاب المتمردين إلى سياسة الإبادة الجماعية بكل معنى الكلمة"[٣٧]. ويذكر المؤلفان أن الخسائر الصينية الإجمالية في الأرواح في أثناء الغزو المغولي كانت مروعة، حيث بلغت خمسة وثلاثين مليوناً من سكان كان إجمالي عددهم مئة وخمسة عشر مليوناً في العام ١٢٠٠. وفي العام ١٢١٨، دمر جنكيز خان إمبراطورية القرخطاي. ومع أن فيليبس Phillips يقول إن الخيتان "انقطع وجودهم كشعب"[٣٨]، ينبغي أن ننبّه إلى أن أفراد الخيتان ظلوا يلعبون أدواراً مهمة في تاريخ آسيا الوسطى، وحتى على المستوى العالمي. من ذلك على سبيل المثال، أن يليو شو تساي Yeliu Chu tsai المستشار الأول الشهير لكل من جنكيز وابنه أوقطاي Ogodei كان خيتانياً من العشيرة المَلكية. وبعد ذلك جاء

دور خوارزم إلى الغرب، وكذلك هسي هشيا، وفي أثناء هذه الحملة توفى جنكيز في العام ١٢٢٧. أسس أوقطاي العاصمة المغولية قاراقورم Karakorum، وهاجم إيران والعراق وروسيا واستولى على كييف في العام ١٢٤٠. وفي العام ١٢٤١، غزا المغول المجر ليصلوا بذلك إلى البحر الأدرياتيكي، وشقّت مجموعة صغيرة طريقها إلى فيينا. ومن حسن حظ أوروبا أن أوقطاي مات في هذه المرحلة، ولذلك أُرجئت خطة احتلال النصف الغربي للقارة. وبعد عهد قصير للخان كيوك Guyuk ابن أوقطاي، أصبح مونكو Mongke الخان الأعظم وامتد حكمه من العام ١٢٥١ إلى العام ١٢٥٩. ودمر المغول الحشاشين(٣١) في إيران في العامين ١٢٥٦-١٢٥٧، واستولوا على بغداد في العام التالي وسط مذابح مروعة، وتلتها دمشق بعد وقت قصير. وفي هذه الأثناء كان المغول يتقدمون في مواجهة إمبراطورية سونغ في جنوب الصين، واستولوا على عاصمتهم هانغتشو Hang-chou في العام ١٢٧٦[٣٩].

وبعد أن أعطى الغزو النهائي لإمبراطورية سونغ الجنوبية في العام ١٢٧٩ للمغول سيطرة كاملة على الصين، أراد قوبلاي خان أن يعزز سلطة دولة يوان Yuan الجديدة (أعلنت في العام ١٢٧١) على ما اعتبره دولاً صينية تابعة. فأخضع المغول كوريا بعد مقاومة طويلة ومريرة، وجنّدوا مواردها من القوة البشرية والسفن لاحتلال اليابان بعد أن رفضت الطبقة الحاكمة الإقطاعية الأبية هناك مطالب الاستسلام المغولية.

---

(٣١) الحشاشون طائفة إسماعيلية نزارية، انفصلت عن الفاطميين في القرن الحادي عشر الميلادي لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله، اشتهرت بين القرن الحادي عشر والثالث عشر، وكانت معاقلها الأساسية في بلاد فارس، وهاجر بعضهم إلى الشام. كانت على عداء مع كل الدول الكبرى في زمنها، واتخذت من الاغتيالات سبيلاً للحرب، ومن اسمها اشتقت كلمة "يغتال" ومشتقاتها في اللغات الأوروبية assassin، فاغتالت الوزير السلجوقي نظام الملك والخليفتين العباسيين المسترشد والراشد وملك بيت المقدس كونراد المونفيراتي. وكانت نهاية دولتهم في بلاد فارس على أيدي المغول بقيادة هولاكو في العام ١٢٥٦، وفي الشام على يدي الظاهر بيبرس في العام ١٢٧٣ [المترجم].

وقد فشل الاحتلال الأولي في العام ١٢٧٤ بفضل المقاومة القوية والطقس السيئ، فشنّ المغول في العام ١٢٨١ حملة غزو هائلة تضمنت آلاف السفن وزهاء مئة وأربعين ألف جندي، وكانت أغلب السفن والأطقم والجنود كوريين وصينيين. وقد انتهى هذا الغزو، كما هو معروف، بكارثة للمغول بفضل الدفاع المستميت من جانب طبقة المحاربين الإقطاعيين و"الريح الإلهية" أو الإعصار القاتل الذي أغرق معظم سفن الأسطول. وانتهى غزو بحري آخر بالفشل، وهو غزو جاوة في العام ١٢٩٢. وأدت الغزوات البرية على بورما إلى إسقاط سلالة باغان، دون أن تتحقق أية فوائد مدركة لدولة يوان، بينما فشلت الغزوات البحرية والبرية على أنام وتشامبا فيما يعرف حالياً باسم فيتنام. وجاء موت قوبلاي خان في العام ١٢٩٤ ليضع حداً للمرحلة التوسعية للإمبراطورية المغولية في شرق آسيا (انظر الشكل رقم ٣.١).

الشكل رقم (٣,١) الإمبراطورية المغولية.

كان من الأسباب المهمة للنجاح المذهل للمغول، كما يرى أدشيد Adshead قدرتهم على حشد ما يقرب من نصف خيول العالم، أي ما يقدّر بنحو عشرين مليون حصان في ذلك الوقت[٤٠]. وبالنظر إلى أن الجيوش المغولية لم تكن كبيرة العدد، إذ كانت تضم زهاء مئة ألف جندي فقط في الحملات الكبرى، فقد كان كل جندي يتاح له نحو عشرين حصاناً ليبدل بينها، وبذلك كانت تتوفر لهم دائماً خيول قوية في المواجهات الحاسمة. ولذلك كان نقص المراعي يشكل قيداً كبيراً على الحملات فيما وراء السهول، وهو ما قد يفسر السبب وراء عدم توغلهم بعيداً في أوروبا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا على الرغم من محاولات غزو بورما وفيتنام.

كانت السيطرة المركزية من جانب "الخان الأعظم" على كامل الإمبراطورية ضعيفة ورمزية بالدرجة الأولى بعد موت مونكو (الذي خلفه قوبلاي). وقُسِمت الإمبراطورية الشاسعة بين أحفاد جنكيز، فكانت الصين والأجزاء المجاورة من منشوريا ومنغوليا من نصيب قوبلاي، وحصل هولاكو على العراق وإيران لتكون إمبراطورية الخان الثاني أو "نائب" الخان الأعظم. وانسلت سيطرتهم على روسيا وأوكرانيا لصالح ما يسمى "القبيلة الذهبية"(٣٢) التي أقامها الخان باتو Batu، وانتقلت السيطرة على آسيا الوسطى بين إيران والصين إلى الجغتاي(٣٣).

---

(٣٢) القبيلة الذهبية Golden Horde خانية مغولية ثم تركية تأسست إبان القرن الثالث عشر وشكّلت القطاع الشمالي الغربي من الإمبراطورية المغولية، و"الذهبية" أو "الصُفرة" في اسمها ربما تعني "مركز" أو "مركزي" في اللغات التركية والمغولية القديمة، أو تشير إلى الثراء، أو ربما لأن الخان باتو أو أوزبغ كانا ينصبان خياماً من الذهب [المترجم].

(٣٣) الجغتاي Chagatai خانية تركية مغولية ضمت أراضي جغتاي خان الابن الثاني لجنكيز خان وخلفائه، استقلت لاحقاً عن الإمبراطورية المغولية، امتدت من نهر جيحون جنوب بحر الأرال Aral حتى جبال الألتاي Altai على حدود منغوليا والصين الحالية [المترجم].

حكم قوبلاي وأحفاده الصين باسم دولة يوان، وتركوا الحضارة والإدارة الصينية دون مساس، وإن توسعوا في استخدام "الخبراء الخارجيين" على المستويات العليا للإدارة العسكرية والمدنية والمالية. وكان معظم هؤلاء الأجانب من مسلمي آسيا الوسطى والبوذيين التبتيين والمسيحيين النسطوريين بسبب عدم ثقتهم في طبقة الموظفين الصينيين. وبالمثل، أبقى الخان الثاني[٣٤] على التقاليد الفارسية والعربية في مناطقهم، وهنا أيضاً استخدموا المسيحيين واليهود ودخلاء آخرين في الإدارة. وأنشأت القبيلة الذهبية عاصمة رائعة في سراي Sarai على نهر الفولغا، لكنهم حافظوا على عدم اختلاطهم مادياً برعاياهم الروس والسلاف. وكانت الضرائب الثقيلة مختلفة الأنواع التي فرضها المغول يجمعها نيابة عنهم الأمراء الروس أنفسهم بالتعاون مع الكنيسة الأرثوذكسية وتحت إشراف مفتشين من المغول. فكانت "الصفقة" تنص على أن تبقى الكنيسة والأمراء الروس في مناصبهم في مقابل الخضوع الذليل للمغول والأداء الفعال لواجباتهم كجباة ضرائب لصالح سادتهم. وكان ذلك هو "النَيْر التتري" سيئ السمعة الذي عاني الروس تحت وطأته لقرون. وتمتعت سهول آسيا الوسطى وواحات دولة الجغتاي بسيطرة غير محكمة من جانب المركز، وحافظت على المزيج التقليدي للزراعة المستقرة حول الواحات والرعي في السهل. ومع أن كثيراً من المدن الكبرى قد أفرغت من سكانها في أثناء الحملات، فقد تعافت على ما يبدو بعد جيل أو اثنين.

وفي الصين وبلاد فارس حكم المغول بطريقة مباشرة شعوباً ضخمة مستقرة، شكّلت "القاعدة الضريبية" لإمبراطورياتهم. ولذلك كان من العقلاني أن يحافظ المغول على الطاقة الإنتاجية لهذه الأراضي ويحسّنوها. وقد أنشأ قوبلاي خان على وجه الخصوص أعمالاً كبرى في مجال النقل والري، وهو ما فعله أكثر نواب الخان استنارة.

(٣٤) الخان الثاني أو نائب الخان هو لقب حكام الإمبراطورية التي وقعت العراق وبلاد فارس من نصيبها عند تقسيم الإمبراطورية المغولية [المترجم].

أدخل النظامان العملات الورقية التي حققت بعض النجاح في البداية في الصين، فيما فشلت من البداية في التجربة الفارسية. وكانت تبريز عاصمة الخان الثاني مركزاً تجارياً مزدهراً في قلب طرق القوافل الرئيسة، فضلاً عن ارتباطها بحرياً بالصين وجنوب شرق آسيا، كما أثبتت رحلة العودة لماركو بولو في رفقة أميرة من سلالة يوان.

وعلى الرغم من المنافسة والنزاع بين مكونات الإمبراطورية كلها، وبخاصة القبيلة الذهبية ونواب الخان في بلاد فارس، تحقق السلام المغولي فعلاً على الأرض. وحرص المغول على تشجيع التجارة، وغدت الطرق عبر آسيا الوسطى أكثر أماناً وازدحاماً مما كانت عليه قبل المغول ومما صارت إليه بعدهم. ولذلك، فعلى الرغم من عبء النَيْر التتري، شهدت المدن الروسية ازدهاراً كبيراً بفضل المشاركة في تجارة المسافات الطويلة. فكانت نوفغورود ترسل الفراء ومنتجات الغابات الأخرى إلى الغرب في مقابل الفضة والأقمشة الصوفية، وكانت أيضاً تتاجر بشكل نشط مع الشرق. وواصلت تجارة الصين مع الشرق الأوسط ازدهارها. وتمكّنت بلدات صغيرة ومناطق ريفية من دفع الضرائب بالفضة، ما يشير إلى تعرضها للتجارة. ويذكر هالبرين Halperin أدلة على أن القطاعات غير النخبوية من السكان كانت تستهلك بعض السلع التجارية، وأن مدناً كثيرة نفذت مشروعات بناء ضخمة للكاتدرائيات وغيرها من الصروح العامة في أثناء الفترة المغولية[٤١].

وتقدم جانيت أبو لغد صورة حية "للنظام العالمي" المترابط أفقياً وغير الخاضع للهيمنة من العام ١٢٥٠ إلى العام ١٣٥٠، وهي فترة السلام المغولي التي تغطي مناطقنا السبع جميعها[٤٢]. فقد توسعت الروابط عبر خطوات متتالية على طول الطريق من الجزر البريطانية وإسبانيا في الغرب إلى الصين وكوريا واليابان في

الشرق، ومن بيرغن[٣٥] ونوفغورود في الشمال إلى الأرخبيل الإندونيسي في الجنوب. بل امتدت الروابط أبعد من ذلك غرباً، إلى آيسلندا التي كانت تستورد الحبوب في مقابل الأقمشة الصوفية، وامتدت بدرجة أضعف إلى غرينلند التي كانت رغم عزلتها واكتفائها الذاتي، ترسل أحياناً أنياب الفظ أو جلود الدببة القطبية إلى آيسلندا والنرويج[٤٣]. ويذكر لوبيز أن شركة مقرها مدينة لوكا الإيطالية أرسلت وكلاء لها إلى غرينلند لجمع الأعشار البابوية[٤٤]. وعلى الرغم من أن المواد خفيفة الوزن عالية القيمة، كالتوابل والحرير والفراء والعبيد، كانت المفضلة دون غيرها لتجارة المسافات الطويلة، فقد ظهرت أسواق إقليمية كثيرة للمواد الثقيلة كالحبوب وزيت الزيتون والخشب. كما تطورت أيضاً البنية التحتية المادية والمؤسسية اللازمة لدعم هذه التجارة، في شكل النقل ونظم الائتمان، وأثبت رحالة من أمثال ابن بطوطة وماركو بولو والمبعوثين البابويين المختلفين مدى السهولة والأمان النسبيين لقطع مسافات هائلة.

وإلى جانب شهادة ماركو بولو والمبعوثين البابويين، توجد أيضاً المعلومات الواردة في كتاب "دليل التجارة" الذي نشره الفلورنسي فرانسيسكو بلدوتشي بيغولوتي Francesco Balducci Pegolotti في أوائل العقد الخامس من القرن الرابع عشر. يذكر الكتاب أن الطريق البري من القرم إلى بكين كان "آمناً تماماً سواء في النهار أو في الليل"[٤٥]، وبالنظر إلى الحضور الإيطالي في البحر الأسود وحوله، فقد كان الإيطاليون أكثر مَنْ استفاد من الفرص التي أتاحتها الفتوحات المغولية. ومع أن الرحلة كانت آمنة نسبياً، كما قيل، إلا أنها كانت طويلة، حيث كانت تستغرق من ثمانية إلى أحد عشر شهراً للوصول إلى الصين من القرم[٤٦]. ومع ذلك، فقد كان من الممكن تحقيق أرباح ضخمة بتقليل الوسطاء. فوفقاً لبيغولوتي، كانت تكلفة السفر والرسوم الجمركية على

(٣٥) بيرغن Bergen مدينة وميناء على الساحل الغربي للنرويج، بدأت التجارة فيها في أوائل القرن الحادي عشر [المترجم].

القافلة الواحدة تبلغ زهاء ثلاثة آلاف وخمسمئة فلورين، بينما كانت البضاعة يمكن أن تباع بنحو خمسة وعشرين ألف فلورين[٤٧]. ولذلك توافد الإيطاليون بأعداد كبيرة على بلاد فارس وسهول القبجاك، بينما استقرت أعداد لا بأس بها من مواطنيهم في الصين لدرجة أن الفرانسيسكان شيّدوا فندقاً في كوانزهو لإيواء التجار الكاثوليك[٤٨]. وفي العام ١٣٢٣، أقيمت أسقفية في كوانزهو، على الرغم من أن المبشرين الفرانسيسكان من أمثال أودوريك البوردينوني Odoric of Pordenone (الذي رافقه في رحلاته شخص يدعى جيمس الإيبيرنياني James of Hibernia الذي يبدو أن روايته لرحلاته قد سرقها مؤلف الرواية الإنجليزية رحلات ماندفيل Mandeville's Travels التي كُتِبت إبان القرن الرابع عشر) لم يحققوا نجاحاً في جهودهم لإدخال الصينيين في المسيحية[٤٩].

ويذهب ديفيد أبولافيا David Abulafia إلى أن الأوروبيين جاؤوا إلى الصين لشراء السلع التصديرية الصينية الفاخرة التقليدية مثل الحرير، وكذلك توابل جنوب شرق آسيا التي كانت تُشحَن شمالاً إلى اليابسة الآسيوية قبل أن يشتريها التجار المسيحيون (والمسلمون)[٥٠]. وإذا أخذنا في الحسبان مزايا التكلفة التي تميّز بها النقل البحري على النقل البري في ذلك الزمان، فإن ذلك دليل رائع على اندماج الاقتصاد الأوراسي في تلك الفترة، على الرغم من وجود خاسرين بالضرورة في هذه العملية، كانت مصر من أبرزهم. فلم يرسل البنادقة قافلة واحدة إلى مصر بين العامين ١٣٢٣ و١٣٤٥[٥١]، إذ فرض السلام المغولي تكلفة اقتصادية على العالم الإسلامي، بعد التكاليف البشعة التي فرضتها عليه الحروب المغولية. كان الإيطاليون يدفعون ثمن مشترياتهم "بالجواهر والخيول والساعات الميكانيكية والأقمشة الكتانية والصوفية الفاخرة"[٥٢]. جرب بعضهم طرقاً مباشرة بدرجة أكبر للوصول إلى التوابل الشرقية، ويقال إن كثيراً من الإيطاليين وصلوا إلى الهند في هذه الفترة[٥٣]. ويذكر فيليبس أن مجموعة من البحارة الجنويين وضعوا

في العام ١٢٩٠ خطة للإبحار أدنى نهر دجلة ووصلوا إلى المحيط الهندي من ذلك الطريق[٥٤].

وللمرة الأولى، أصبحت السلع تنتقل حرة عبر كل أجزاء العالم المعروف، وكذلك الناس والتقنيات والأفكار. ومن ذلك على سبيل المثال أن جون المونتيكورفيني John of Monte Corvino ترجم العهد الجديد وسفر المزامير المسيحي إلى اللغة التترية[٥٥]. على أن تدفق المعلومات ثبت أنه أكثر تأثيراً بكثير في الاتجاه المعاكس، أي من الشرق إلى الغرب، إذ أخذ التغير التقني في أوروبا الغربية دفعة قوية مع انتشار الاختراعات الصينية في تلك الفترة، كما أكد نيدهام Needham[٥٦]. على أن الدليل الأهم على الاندماج العالمي الذي حققه السلام المغولي يكشف عن نفسه في شكل بيانات الأسعار التي يذكرها لوبيز والتي تؤكد أن الحرير الصيني كان يباع في إيطاليا في تلك الفترة بما لا يزيد عن ثلاثة أضعاف السعر الذي اشْتُري به في الصين[٥٧].

متى بدأت"العولمة" إذن؟ مع أن الإجابة تعتمد على التعريف المستخدم، إلا أنه توجد أدلة قوية تؤكد أن العولمة بدأت مع توحيد اليابسة الأوراسية الوسطى بفعل الفتوحات المغولية وردود الفعل التي أثارتها في الحضارات المستقرة التي فتحوها. فكل الحضارات السابقة على الفتوحات المغولية كانت تدرك وجود بعضها البعض، لكن ككيانات منعزلة وحسب، وليس كمكونات تفاعلية في نظام موحد. وفي أوروبا، عملت أساطير "الكاهن يوحنا"(٣٦)، ذلك البطل المسيحي الأسطوري في الشرق الذي

(٣٦) الكاهن يوحنا Prester John ملك مسيحي أسطوري يقال إنه حكم دولة مسيحية في وسط البلاد الإسلامية والوثنية في الشرق من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر، وقد حِيكت حول أعماله وأوصافه العديد من الحكايات، واشتغل الكثير من البحارة والمغامرين المعاصرين بالبحث عن مملكته، والكثير من الباحثين الحديثين بالبحث في أصول أسطورته. فقيل إن مملكته كانت تقع على حدود الجنة الأرضية وتضم عجائب منها بوابات الإسكندر وينبوع الشباب والمرآة التي كان يراقب منها كل مقاطعات مملكته. ربما ترجع أسطورته إلى العزلة التي وجدت الحملات الصليبية نفسها فيها في الأراضي المقدسة، ولذلك ارتقبوا دعماً من الشرق الأقصى الغامض، ففي العام ١١٤٥ نقل أسقف سرياني أخباراً إلى البلاط البابوي بوجود راهب وملك قوي بعد بلاد فارس وأنه أحرز نصراً على المسلمين، ربما كان يقصد معركة قطوان في فارس التي هُزِم فيها جيش من الأتراك في العام ١١٤١ أمام قائد

فهم الأوروبيون خطأ أنه جنكيز خان وغيره من الفاتحين البدو غير المسلمين، حتى هذه الأساطير عملت على تقديم إطار جيوسياسي موحد، ما شجع التفكير في فتح جبهة شرقية ضد الإسلام، وأثار الرغبة في التواصل بحراً أو براً مع هذه العوالم القابعة فيما وراء العالم الإسلامي لأغراض دينية وعسكرية وتجارية(٣٧). ونتيجة لمنافسة البنادقة للجنويين على البر، فكر الأخيرون في حيلة للدوران حول أفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر، وكان من نتائج ذلك رحلة الأخوين فيفالدي المفقودة في العام ١٢٩١(٣٨). ثم نفذ جنوي آخر محاولة مماثلة بعد قرنين. وبتعبير أدشيد، فإن "أوروبا حين سيطرت على العالم، فإنها قد فعلت ذلك لأنها أدركت قبل غيرها أن هناك عالماً يمكن السيطرة عليه. فثمة خط مستقيم يمتد من ماركو بولو إلى كرستوفر كولومبس، ومن البنادقة الذين ركزوا نظرهم على الشرق إلى الجنويين الذين ركزوا نظرهم على الغرب"[٥٨].

أوراسيا في عشية الطاعون

تغير الموقع النسبي لوحداتنا الإقليمية السبع في العام ١٣٥٠ بدرجة كبيرة عما كانت عليه الحال في العام ١٠٠٠. فأوروبا الغربية التي كانت "منطقة خلفية" متخلفة بالنسبة لبيزنطة والعالم الإسلامي في بداية الألفية طورت قاعدة زراعية عالية الإنتاجية، أدت إلى زيادة كبيرة في عدد السكان، واجتازت أيضاً ما أسماه روبرت لوبيز "الثورة التجارية"[٥٩]، وكانت للمدن الإيطالية الريادة في توسيع مدى التجارة

مغولي يدعى كور خان مؤسس دولة القرخطاي التي حكمت في آسيا الوسطى وشمال الصين، وكان بعض أتباعه من النسطوريين وربما حرفوا اسمه إلى يوحنا [المترجم].

(٣٧) كان الغرض الأساسي من رحلة كولومبس التي تعثر فيها بكوبا- كما ورد في تقديم المترجم- هو الالتفاف حول العالم الإسلامي وفتح جبهة شرقية ضده وتوجيه ضربة مزدوجة له، بعد فشل الحملات الصليبية على المشرق [المترجم].

(٣٨) كان الأخوان فاندينو Vandino وأوغولينو Ugolino فيفالدي Vivaldi مستشكفين وبحارين جنويين، خرجا في مايو ١٢٩١ على رأس بعثة استكشافية للوصول من أوروبا إلى الهند عبر المحيط الأطلسي، أبحرا من جنوى وعبرا الساحل المغربي إلى مكان يعرف برأس نون أو شونار جنوب المغرب، ولم يعرف عن بعثتهم شيء بعد ذلك، وتعد بعثتهما من أوائل البعثات الاستكشافية [المترجم].

وتنوعها بحراً وبراً، فضلاً عن تقديم تجديدات تقنية مهمة في صناعات المنسوجات وبناء السفن والتقنيات الملاحية. وأفسحت النقابات التجارية من اليونانيين والسوريين واليهود التي لعبت دوراً بارزاً في تجارة المسافات الطويلة في العام ١٠٠٠، الطريق أمام المنافسين الأقوياء من البنادقة والجنويين الذين كانت تدعمهم القوة المسلحة في حال الضرورة. والشحن في البحر الأبيض المتوسط الذي كان في السابق يخضع لسيطرة بيزنطة والمسلمين، أصبح حينئذ في أيدي الإيطاليين بالدرجة الأولى. وامتد نطاق تجارتهم من القنال الإنجليزي إلى البحر الأسود بحلول العام ١٣٥٠، مع زيادة في تكرار الرحلات وسرعتها بفضل تبني البوصلة وتجديدات ملاحية أخرى.

رأينا فيما سبق أن تجارة المسافات الطويلة عَرَّفت التجار الغربيين بعديد من الممارسات المالية المتطورة، لكنها أعطتهم أيضاً الدافع لتبني هذه الممارسات. ولذلك فإن الثورة التجارية التي تضمنت التجارة مع آسيا وأيضاً الزيادة في التجارة الأوروبية البينية سريعة النمو التي قدمنا وصفاً لها في الفصل السابق، حفزت كثيراً من التجديدات المهمة في أوروبا، كان من بينها الحوالات التي قابلناها في موضع سابق، وكذلك أعمال الإيداع المصرفي والتأمين و"المحاسبة التجارية والمصرفية التي تطورت تدريجياً من أوراق فوضوية إلى عمودين منفصلين لجانب المدين وجانب الدائن، وفي النهاية إلى محاسبة القيد المزدوج الصارمة"[٦٠]. وشجعت التجارة الأوروبية الداخلية في هذه الفترة التخصص الصناعي والزراعي على حد سواء، وقد كانت لذلك تأثيرات مفيدة على مستويات المعيشة الأوروبية. وكان التحول الحضري Urbanization عنصراً مكملاً لهذه العملية، وتخصصت المدن في تصنيع مواد بعينها ومبادلتها بالمواد الغذائية المستوْردة[٦١]. وهكذا "انتقلت التجارة من حافة الحياة اليومية إلى قلبها" في أوروبا، و"أصبحت القوة الدافعة للتقدم الاقتصادي"[٦٢].

وعلى الجانب الآخر، كان العالم الإسلامي يجتاز وعكة اقتصادية امتدت من شبه الجزيرة الأيبيرية التي طردهم التقدم المسيحي منها، على طول الطريق إلى العراق وإيران في الشرق اللتين ترنحتا أمام الهجمة المغولية. صحيح أنه حدث تحسن تدريجي

بعد الدمار الأولي، لكن لا شك في أن بغداد وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن المزدهرة كانت أزمان عزها قد ولّت قبل وقت طويل. وكانت دول شمال أفريقيا فقط، وتحديداً مصر وسوريا تحت الحكم المملوكي، هي التي لا تزال تمارس قوة سياسية وعسكرية هائلة. لكن ثروة الدولة المملوكية كانت قد أصبحت معتمدة تماماً على الريوع من تجارة العبور في التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى، حينما حوّل السلام المغولي التجارة بعيداً عن البحر الأحمر إلى الطريق البري. وعانت بيزنطة كوارث كبرى إبان الفترة ١٠٠٠- ١٣٥٠، بدءاً من فقدان غرب الأناضول لصالح الأتراك، إلى احتلال القسطنطينية نفسها من جانب الصليبيين اللاتينيين من العام ١٢٠٤ إلى العام ١٢٦١. وحتى بعد إعادة الأباطرة البيزنطيين، آلت السيطرة على الحياة الاقتصادية للإمبراطورية على نحو متزايد إلى أيدي الجنويين والبنادقة. أما دولة روسيا الكييفية، فعلى الرغم من أنها تمتعت بانطلاقة واعدة في ظل الرعاية الثقافية للكنيسة الأرثوذكسية، فقد وقعت فريسة للمغول، وغدت الدول التي خَلَفتها مجرد دول تابعة لسادتهم من أبناء السهل من القبيلة الذهبية وجباة ضرائب لصالحهم.

كان التغيير الجذري في تلك الفترة هو سيطرة البدو من المغول الأتراك بآسيا الوسطى على اليابسة الأوراسية من جبال الأورال إلى المحيط الهادي. كانت هذه القبائل قد أسست في العام ١٠٠٠ إمبراطورية الخزر في الغرب على حدود بيزنطة وروسيا الكييفية والعالم الإسلامي، وكذلك إمبراطوريتي الخيتان والتانكوتيين في الشرق على حدود إمبراطورية سونغ الصينية. وبحلول العام ١٣٥٠، كان المغول قد غزوا الصين كلها في الشرق، والعراق وإيران في الغرب، وحوّلوا الإمارات الروسية إلى كيانات تابعة لهم. وكذلك خضعت دلهي والسهول الهندية الشمالية الخصبة لسلالات حاكمة تركية من الجنود الرقيق، وحتى المماليك الذين حكموا مصر وسوريا في ذلك العصر

كانوا في معظمهم من الأتراك والقبجاك. كما نفذوا غزوات غير ناجحة على اليابان وجاوة عن طريق البحر، وهاجموا بورما وفيتنام على يابسة جنوب شرق آسيا.

وعلى أية حال، فقد تمكن العالم الإسلامي من تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصر ثقافي باعتناق نواب الخان والقبيلة الذهبية الإسلام، على الرغم من تمسكهم السابق بالشامانية وتجريبهم للبوذية والمسيحية النسطورية. وكما رأينا آنفاً، فقد طُرِد الصليبيون من مواطئ أقدامهم في فلسطين وسوريا. وبذلك تم الحفاظ على الامتداد الإقليمي لدار الإسلام، بل وتوسيعها إلى النصف الشمالي من الهند في حكم سلطنة دلهي، فيما تمثلت خسارتهم الوحيدة في شبه الجزيرة الأيبيرية[٣٩]. فقد تمكّن الإسلام من خلال دمج بدو السهل الأتراك المحاربين الأقوياء في حظيرته الثقافية من امتصاص الهجمة المغولية التي ألحقت به أضراراً بالغة إبان القرن الثالث عشر وتجاوزها. وذاب المغول في بلاد فارس وعلى المناطق الحدودية الروسية تدريجياً في الجماعات التركية الكبرى التي اقترنوا بها وكانت تربطهم بها صلات ثقافية ولغوية.

الطاعون

تسبب الاندماج الذي حققه السلام المغولي في النتيجة المأساوية التي أسماها لو روي لادوري Le Roy Ladurie "توحيد الكرة الأرضية بالمرض" أو بناء "سوق ميكروبي مشترك"[٦٣]. فلم يحدث التوحيد التصوري للعالم إلى جانب التوحيد الاقتصادي وحسب، كما أشرنا سابقاً، وإنما أيضاً التوحيد البيولوجي. فأخذت البكتيريا والفيروسات التي كانت لمدة طويلة مقصورة على مناطق محلية معينة، تنتقل وتختلط مع حركة البشر والحيوانات عبر المسافات الطويلة، كما حدث مثلاً مع تحركات الفرسان المغول. وفي ذلك يرى ماكنيل McNeill أن جراثيم الطاعون انتقلت مع القوات

(٣٩) يقصد المؤلف فقدان الأندلس الذي اكتمل بسقوط آخر ممالك المسلمين فيها، وهي غرناطة، أمام جيوش الملكين الكاثوليكيين فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية في العام ١٤٩٢ [المترجم].

المغولية من الحدود بين بورما ويونان إلى آسيا الوسطى، وأخيراً إلى المحطة التجارية الجنوية بمدينة كافا Kaffa (فيودوسيا Feodosiya) على البحر الأسود في العام ١٣٤٧[٦٤](٤٠). ومن القصص المتواترة أن خان القبيلة الذهبية جانيبغ Janibeg أمر بقذف الجثث المصابة بالطاعون بالمنجنيق على مدينة كافا حين حاصرها في العام ١٣٤٧، ومنها انتقل الطاعون على سفينة جنوية إلى ميسينا Messina بصقلية. وانتشر سريعاً إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، وأيضاً عبر أوروبا ومصر وسوريا. وقد قُدّر معدل الوفيات الأوروبي الإجمالي بين ربع السكان وثلثهم، وكان أعلى ما يكون في المناطق كثيفة السكان في الغرب، وأدنى ما يكون في الشرق المخلخل سكانياً[٦٥]. ويذكر كارلو سيبولا Carlo Cipolla أن الطاعون قتل إبان الفترة من العام ١٣٤٨ إلى العام ١٣٥١ زهاء خمسة وعشرين مليون شخص من إجمالي سكان أوروبا البالغ عددهم ثمانين مليوناً[٦٦]. وتكرر الطاعون في موجات أقل شدة حتى نهاية القرن السادس عشر. لقد كان الطاعون- بلا شك- الكارثة الكبرى التي ضربت العالم الغربي خلال الألفية الثانية، حتى مع أخذ الحربين العالميتين إبان القرن العشرين في الحسبان. ويذكر دولز Dols أن تأثير الطاعون على العالم الإسلامي لم يكن أقل حدة عما حدث في أوروبا، إن لم يزد عنه حدة[٦٧]. فيما بقي من هذا الفصل، نتناول نتائج تلك الكارثة والتعافي اللاحق منها في حجم التجارة العالمية ونمطها.

عند تحليل النتائج الاقتصادية للطاعون، يتضح أن تأثيره المباشر تمثل في هبوط حاد في الإنتاج الإجمالي، في مقابل ارتفاع في معدل الدخل الحقيقي والثروة لكل

---

(٤٠) يشكل السؤال عن نوعية هذه الجراثيم، وما إذا كانت جرثومة الطاعون الدبلي أم جرثومة باستوريلا pasteurella pestis أم غيرها قضية جدلية اليوم. للحصول على الآراء الأخيرة المختلفة حول الموضوع، انظر Cohn (2003) and Benedictow (2004). ولكي لا نتخذ موقفاً من هذه القضية الخلافية، سنستخدم فيما يلي مصطلحي "الطاعون الأسود" Black Death "والطاعون" plague بالتبادل.

فرد، لأن الطاعون لم يؤثر على الأرض ورأس المال المادي، وكذلك قطعان الماشية[٤١]. ومع تناقص غلة العمل[٤٢]، نتوقع ارتفاعاً في الأجر الحقيقي، وبالتالي انخفاضاً في الإيجار لكل هكتار وعائدات رأس المال المادي. وعلاوة على ذلك، يقودنا المبدأ الشهير بنظرية ريبزينسكي Rybczynski للتجارة إلى توقع حدوث ارتفاع في الأسعار النسبية للسلع كثيفة العمالة وانخفاض في الأسعار النسبية للسلع كثيفة الاستخدام للأرض، لأن ناتج الأولى يتقلص وناتج الأخيرة يتوسع إذا ظلت الأسعار النسبية للمنتجات ثابتة. ومع زيادة معدل دخل الفرد، نتوقع أيضاً ازدهاراً في أسواق سلع الترف وتراجعاً نسبياً في أسواق السلع الأساسية مثل الغذاء والمواد الضرورية الأخرى.

نتحول الآن إلى الأدبيات التاريخية حول الموضوع لنتحقق من صحة هذه التنبؤات الكلاسيكية المُحْدَثة البسيطة، مع التركيز على الأدلة الأوروبية. وإذا ثبتت دقة هذه التنبؤات، يكون من اليسير حسم مسألة جدلية كبرى بين لوبيز وميسكمين Lopez and Miskimin[٦٨] من جانب وسيبولا[٦٩] من جانب آخر. كتب المؤلفان الأولان عن "كساد عصر النهضة"[٤٣]، لأن الازدهار الثقافي على مدى القرن ونصف القرن التاليين صحبه تراجع في السكان والإنتاج والتجارة في نحو العام ١٣٥٠، ثم حدث تحسن

(٤١) يعتمد التحليل التالي بالدرجة الأولى على أعمال فيندلاي ولوندال (Findlay and Lundahl, 2003, 2006). ومن المؤكد أن هذه التنبؤات تنطبق على المناطق التي كانت الأرض الزراعية نادرة فيها مثل أوروبا الغربية والصين، وبدرجة أقل على المجتمعات التخومية مثل آسيا الوسطى التي كان المعروض من الأرض فيها غير محدود وكان الناتج الحدي للعمل ثابتاً نسبياً.

(٤٢) ينص قانون تناقص الغلة على أنه "إذا زادت كمية أحد عناصر الإنتاج بوحدات متساوية، بينما ظلت كمية عناصر الإنتاج الأخرى ثابتة، فإنه بعد حد معين يأخذ الناتج الحدي والناتج المتوسط في التناقص" [المترجم].

(٤٣) يغطي عصر النهضة القرون من الرابع عشر إلى السابع عشر، بدأ كحركة ثقافية في إيطاليا إبان العصور الوسطى المتأخرة وامتد لاحقاً إلى بقية أوروبا [المترجم].

تدريجي بعد ذلك فقط. ويذكر سيبولا- في المقابل- أدلة على حدوث تحسن لكل فرد. وتتضح "أطروحة التحسن الفردي" بجلاء، حين يلاحظ بريدبيري Bridbury[٧٠] أن إنجلترا، وضمناً بقية أوروبا الغربية التي عانت من آثار الطاعون، قد "أُعطيت نوعاً من معونة مارشال على نطاق هائل"[٧١].

من الواضح أن الحقائق الأساسية تتفق مع توقعاتنا النظرية وأطروحة التحسن الفردي. يعرض الشكل رقم (٣.٢) بيانات جون منرو John Munro للأجور الحقيقية لعمال البناء الإنجليز إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٧٢]. وكما نرى، فإن البيانات تكشف ارتفاعاً حاداً في الأجور الحقيقية الإنجليزية بداية من منتصف القرن الرابع عشر. وواصلت الأجور الحقيقية الارتفاع على مدى قرن تقريباً، ولذلك ففي منتصف القرن الخامس عشر، كان العمال يحققون دخلاً حقيقياً أكثر من ضعف ما كانوا ينالونه في عشية الطاعون(٤٤). ولم تقتصر هذه الاتجاهات للأجور على إنجلترا وحدها. فبيانات إيرل هاملتون Earl Hamilton للأجور الحقيقية في نافارا(٤٥) توضح أن الأجور الحقيقية للعمال ارتفعت أكثر من الضعف بين أوائل العقد السادس من القرن الرابع عشر والنصف الأول من العقد الأول من القرن الخامس عشر، قبل أن تنخفض بنحو الخُمس[٧٣]. وفي العام ١٣٦٣، اشتكى مراقب فلورنسي معاصر يدعى ماتيو فيلاني Matteo Villani من "الخادمات المنزليات وصبية الاسطبلات ... الذين يريدون اثني عشر فلورينا على الأقل في العام، والمميّز بينهم يريد ثمانية عشر أو حتى عشرين فلورينا في العام، وكذلك المربيات والحرفيون الصغار الذين يعملون بأيديهم يريدون

(٤٤) توضح بيانات كلارك (Clark, 2005) الشيء نفسه تقريباً، إضافة إلى هبوط الأجور في أثناء التوسع السكاني إبان القرن الثالث عشر.

(٤٥) نافارا Navarre منطقة في شمال إسبانيا، على حدود إقليم الباسك ولارويخا وآراغون في إسبانيا وأكواتان في فرنسا، عاصمتها بامبلونا Pamplona [المترجم].

ثلاثة أضعاف الأجر العادي أو نحو ذلك"[٧٤]. واشتكى الرجل في الوقت نفسه من التضخم المتفشي، لكن قوله إن "عامة الناس بسبب الوفرة الزائدة التي يجدونها لم يعودوا يعملون في حرفهم المعتادة، وأخذوا يتطلعون إلى أشهى الأطعمة وأعلاها ثمناً... في حين يرتدي الأطفال والعاهرات الملابس الجميلة والغالية لعلية القوم الذين وافاهم الأجل"[٧٥] يكشف أيضاً- أي هذا القول- أن مستويات معيشة الفقراء تحسنت هناك إجمالاً(٤٦). وأخيراً، يتضح أن الأجور الحقيقية الحضرية زادت إلى الضعف تقريباً في مصر وبيزنطة ومنطقة البلقان، وكذلك في أوروبا الغربية[٧٦].

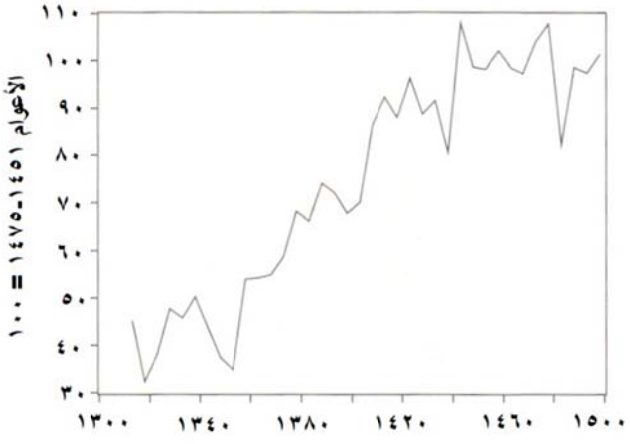

الشكل رقم (٣,٢). أجور البناء الحقيقية في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠-١٥٠٠ (الفترة ١٤٥١-١٤٧٥ = ١٠٠).

المصدر: Munro (2004)

(٤٦) ثمة استثناء مهم لهذا الاتجاه في الأدبيات يقدمه منرو (Munor, 2004) يقول إن أجور البناء الحقيقية في بروج Bruges هبطت بنسبة ٣٠٪ تقريباً بين العامين ١٣٤٩- ١٣٥٠ والأعوام ١٣٥٦- ١٣٦٠، وبدأت في الارتفاع بعد ذلك، وبلغت ذروتها في الأعوام ١٤٠١- ١٤٠٥ (وعند هذه المرحلة كانت أعلى بتحو ١٥٪ من مستواها في العامين ١٣٤٩- ١٣٥٠).

يوضح الشكل رقم (٣,٣) أن العمال راجت تجارتهم بكل من الأرقام المطلقة والنسبية. فكما يتضح من الشكل، تراجعت نسبة الأجور الإنجليزية إلى إيجار الأراضي بثبات من العام ١٣٠٠ إلى العام ١٣٥٠، لكن الطاعون أدى إلى مضاعفة فورية لنسبة الأجور إلى إيجار الأراضي، تلاها زيادة ثابتة على مدى القرن التالي. وقد اتسعت المدن والبلدات في أعقاب الطاعون، مقارنة بما حدث بعد طاعون جوستنيان، وهو ما يعكس التأثيرات الإيجابية لارتفاع مستويات المعيشة على التحول الحضري، التي عوضت التأثيرات السلبية لانخفاض السكان. ولذلك يذكر بوتير Bautier أن سكان باريس ازدادوا من نحو مئة ألف نسمة في بداية القرن الرابع عشر إلى نحو ثلاثمئة ألف بحلول القرن السادس عشر[٧٧]. وازداد عدد سكان لوبيك(٤٧) من خمسة عشر ألف نسمة في نحو العام ١٣٠٠ إلى خمسة وعشرين ألفاً إبان القرن الخامس عشر، وهامبرغ من خمسة آلاف نسمة في نحو العام ١٣٠٠ إلى ستة عشر ألفاً في نحو العام ١٤٥٠، وبريمين من اثنتي عشر ألف نسمة قبل الطاعون إلى سبعة عشر ألفاً في نحو العام ١٤٠٠، ودانزيغ(٤٨) من ألفي نسمة في العام ١٣٠٠ إلى عشرين ألفاً بحلول منتصف القرن الخامس عشر[٧٨].

وفي مجال الزراعة حدث توسع في النشاطات التي تعتمد على كثافة الأرض مثل تربية الأغنام والماشية، في مقابل زراعة الحبوب. وفي حال ثبات العوامل الأخرى (خاصة الطلب)، فإن ذلك أدى بالتأكيد إلى هبوط في الأسعار النسبية للمنتجات الحيوانية مثل الصوف.

---

(٤٧) لوبيك Lubeck ثاني أكبر مدينة بولاية شليسفيش هولشتاين بشمال ألمانيا تقع على بحر البلطيق، كانت عاصمة الرابطة الهانزية [المترجم].

(٤٨) دانزيغ Danzig (باللغة الألمانية) مدنية بولندية على ساحل البلطيق اسمها بالبولندية هو غدانسك Gdansk [المترجم].

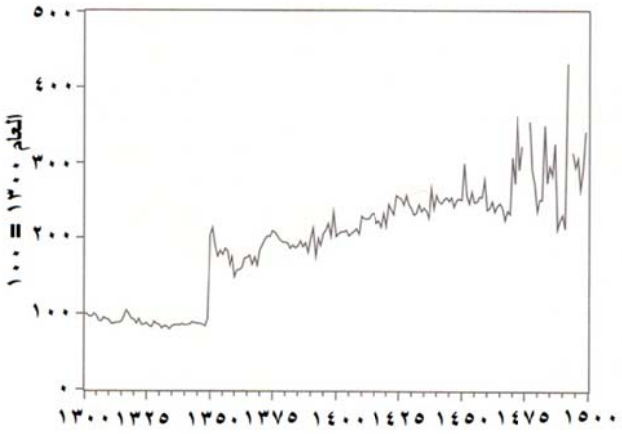

الشكل رقم (٣,٣). نسبة الأجور إلى إيجار الأرض في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠–١٥٠٠ (العام ١٣٠٠ = ١٠٠).

المصدر: نشكر غريغ كلارك Greg Clark على تزويدنا بهذه البيانات

وقد أحدث هذا الهبوط، إلى جانب مرونة الطلب العالية على المنسوجات الصوفية عالية النوعية، ازدهاراً طويلاً في صناعة الأقمشة الصوفية، وهي القطاع الصناعي الرائد في العصور الوسطى. يوضح الجزء (أ) من الشكل رقم (٣.٤) أن أسعار الأقمشة الصوفية أخذت ترتفع بثبات مقارنة بأسعار الصوف بين العامين ١٣٥٠ و١٥٠٠، ومع أن ذلك نتج على الأرجح عن التكلفة الأعلى للعمال، فليس من المفاجئ أن تنمو هذه الصناعة بقوة مذهلة في تلك الفترة، وتركز النسج في بلدات فلندرة والتشطيب والصبغ في فلورنسا والمدن الإيطالية الشمالية الأخرى. وقد وفرت الضرائب على صادرات الصوف الخام التي فرضها إدوارد الثالث لتمويل حروبه في فرنسا "حماية فعالة" لصناعة المنسوجات الصوفية في إنجلترا، كما أشارت إيلين باور Eileen Power قبل فترة طويلة[٧٩]، ودفعت تحولاً في تركيب الصادرات من الصوف الخام إلى الأقمشة، على حساب منطقة فلندرة.

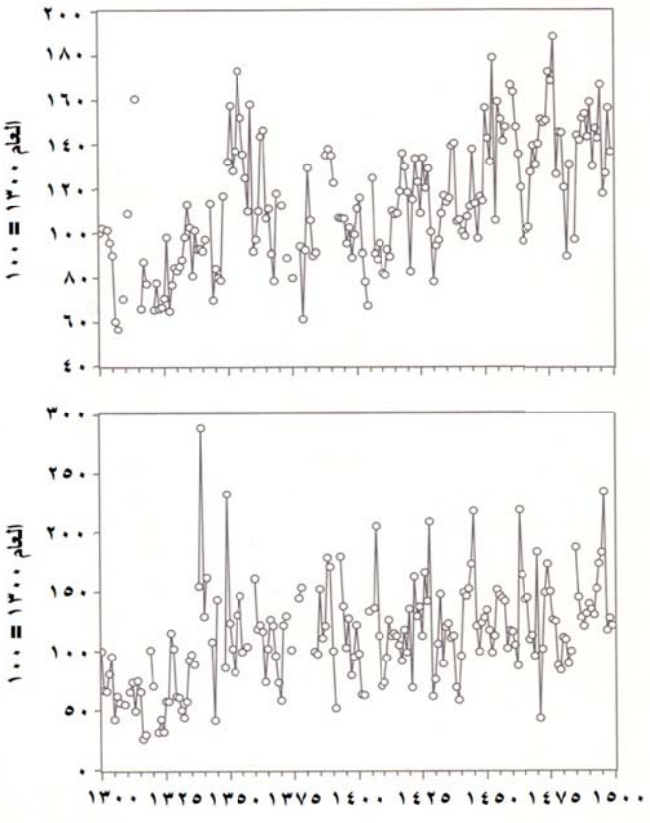

الشكل رقم (٣,٤) .اتجاهات الأسعار النسبية للسلع في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠–١٥٠٠ (العام ١٣٠٠ = ١٠٠): (أ) نسبة أسعار الأقمشة الصوفية إلى أسعار الصوف، (ب) نسبة أسعار النبيذ وخمر البورت إلى أسعار القمح.

المصدر: نشكر غريغ كلارك Greg Clark على تزويدنا بهذه البيانات.

أدت مرونة الدخل العالية على طلب النبيذ والبيرة إلى ارتفاع أسعارهما النسبية (الجزء "ب" من الشكل رقم٣,٤)، ما دفع بدوره توسعاً في مزارع العنب والشعير على حساب القمح. ربما كان الأهم من ذلك كثيراً بالنسبة للتجارة بين القارات هو تأثير ارتفاع مستويات المعيشة على الأسعار النسبية للتوابل الآسيوية التي ارتفعت بشدة كما

هو متوقع. وتوضح بيانات هاملتون أن أسعار التوابل الآسيوية في نافارا تضاعفت نسبة إلى السلع الزراعية في ربع القرن الذي تلا الطاعون[٨٠]، وتكشف بيانات غريغ كلارك أن شيئاً مماثلاً حدث في إنجلترا، حيث كانت الأسعار النسبية للتوابل منخفضة في أثناء السلام المغولي، وتلتها أسعار نسبية أعلى كثيراً بداية من العقد الخامس من القرن الرابع عشر فصاعداً. ويوضح الشكل رقم (٣,٥) أن الأسعار النسبية للفلفل في إنجلترا ارتفعت خلال القرن الخامس عشر، على الرغم من أن هذا الاتجاه يحجبه نتوء رائع في أسعار الفلفل في العام ١٤١١ أو نحوه استمر طوال هذا العقد والعقد الذي تلاه. وفي حال تحييد هذا النتوء الذي سنعود إليه لاحقاً، يتضح الاتجاه الصاعد لأسعار الفلفل بدرجة لا تخطئها عين. والشيء نفسه ينطبق على الأسعار الحقيقية للفلفل في فيينا وهولندا، على الرغم من أن الاتجاه الصاعد في الحالة الأخيرة كان دالاً إحصائياً بدرجة ضعيفة[٨١].

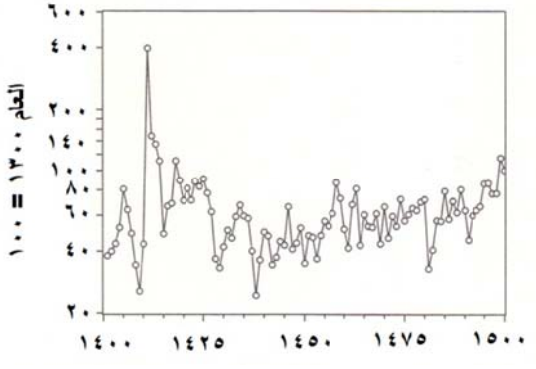

الشكل رقم (٣,٥) .أسعار الفلفل السنوية في إنجلترا إبان الفترة ١٤٠١–١٥٠٠ نسبة إلى الحبوب (العام ١٥٠٠ = ١٠٠).

المصدر: O'Rourke and Williamson (forthcoming)

نزيف هائل للعرض النقدي المملوكي، ذهب في مقابل إعادة ملء صفوف المماليك خَلّف الطاعون أيضاً آثاراً نقدية على أوروبا، أوجزها ديفيد هيرلي David Herlihy في عبارة لا تنسى نصها "مات الرجال، فيما نجت العملات"(٤٩). فمن حيث معادلة فيشر الشهيرة (ق ع = ن س)(٥٠)، لم تتغير ق ع (العرض النقدي "ق" مضروباً في السرعة "ع") في البداية، لكن الناتج "ن" انخفض نتيجة للانخفاض في عدد السكان، ولذلك كان لا بد أن ترتفع الأسعار "س". وتمثلت نتيجة ذلك فيما أسماه منرو "الانفجار المفاجئ لتضخم مفزع جداً"، حيث ارتفعت أسعار السلع بشدة نسبة إلى الفضة[٨٢]. وهذا الهبوط في الأسعار النسبية للفضة أدى بدوره إلى خفض إنتاج الفضة (والذهب) في أوروبا[٨٣] الذي تزامن – كما رأينا – مع زيادة في الطلب الأوروبي على السلع التجارية الشرقية. ونظراً لأن أثمان هذه السلع كانت تدفع بالفضة بالدرجة الأولى، فقد تمثل التأثير الصافي لذلك في تراجع المخزون الأوروبي من العملات الفضية، ما جعل جون داي John Day يتحدث عن "مجاعة السبائك الكبرى إبان القرن الخامس عشر"[٨٤](٥١). تتبع لوبيز وميسكيمين وأودوفيتش تدفق السبائك من إنجلترا إلى مصر عن طريق إيطاليا بين العامين ١٣٥٠ و١٥٠٠، ووجدوا أن كل ما كانت مصر تجمعه من السبائك من الغرب، كانت تفقده في النهاية لصالح الهند والشرق الأقصى[٨٥]. فثمة نزيف هائل للعرض النقدي المملوكي، ذهب في مقابل إعادة ملء صفوف المماليك أنفسهم بواردات جديدة من الرقيق الصبية الذكور القادمين من السهول عبر البحر الأسود. وبالنظر إلى أن كل عبد كان يكلّف ما بين خمسين ومئة وأربعين ديناراً ذهبياً، فإن استيراد ألفي عبد سنوياً كان يكلّف مصر ما بين مئة ألف ومئتين وثمانين ألف دينار ذهبي إبان العقد الثالث من القرن الخامس عشر.

---

(٤٩) Herlihy 1997, p. 125 نقلاً عن Muro, 2004, p. 1037.

(٥٠) في هذه المعادلة، تشير الاختصارات إلى: "ق" إلى العرض النقدي أو المعروض من النقد، "ع" إلى السرعة، "ن" إلى الناتج، "س" إلى السعر [المترجم].

(٥١) انظر أيضاً Miskimin, 1975 و Spufford, 1988, chapters 14-16. وللحصول على وجهة النظر المضادة، انظر Sussman (1998).

وقد أدى الارتفاع في مستويات المعيشة الأوروبية مع الزمن إلى تعافي في عدد السكان للأسباب المالتوسية المألوفة، وبالتالي ارتفاع الناتج الأوروبي (يناقش الفصل السادس النموذج المالتوسي بمزيد من التفصيل). ومع ارتفاع الناتج وانخفاض المعروض من الفضة في الاقتصاد، كان لا بد أن تبدأ مستويات الأسعار في الانخفاض في النهاية، مع فترة طويلة من الانكماش بعد الانفجار الأولي للتضخم. استمر ذلك إلى أن أدى ارتفاع الأسعار النسبية للفضة إلى تحسن في التعدين بحثاً عن الفضة، مع حدوث ارتفاع تال في مستوى الأسعار. وعلى ذلك، فإن نموذج التوازن العام البسيط الذي يقدمه فيندلاي ولندال Findlay and Lundahl يتنبأ بأن مستوى الأسعار الأوروبية ارتفع بالتأكيد في البداية بعد الطاعون، ثم انخفض نتيجة لمجاعة السبائك، وأخيراً ارتفع مرة ثانية[٨٦].

وهذا بالضبط هو ما حدث على الأرجح. يعرض الشكل رقم (٣.٦) أسعار الحبوب في شمال إيطاليا معبراً عنها بالفضة. تلا ارتفاع الأسعار في أواخر القرن الرابع عشر هبوط حاد في الأسعار، دام حتى العقد السابع من القرن الخامس عشر، حين تلته زيادة ملحوظة، وإن كانت متواضعة في الأسعار. ويذهب نيف Nef إلى أن "ازدهاراً في التعدين وعلم المعادن" حدث بين العامين ١٤٦٠ و١٥٣٠، وأن ناتج الفضة السنوي لأوروبا الوسطى ارتفع ربما لأكثر من خمسة أضعاف[٨٧]. ويقدم منرو أدلة جديدة دامغة على حجم هذا الازدهار الذي "تجاوز كثيراً حجم واردات الفضة من أمريكا الإسبانية في النصف الأول من القرن السادس عشر"[٨٨]. ويضيف منرو أن هذا الازدهار لم يثر تضخماً كبيراً، ويفسر ذلك بأن الفضة كانت تستنزف باستمرار إلى الشرق بسبب التجارة، وأن الاقتصاد الأوروبي في ذلك الوقت كان يشهد توسعاً جنباً إلى جنب مع زيادة عدد السكان، ما يعني ضمناً أن أية زيادة في كمية النقود كانت مطلوبة لمنع هبوط الأسعار وحسب(٥٢).

(٥٢) علاوة على أن ناتج التعدين لم يتسارع بشدة إلا بعد العام ١٥١٠.

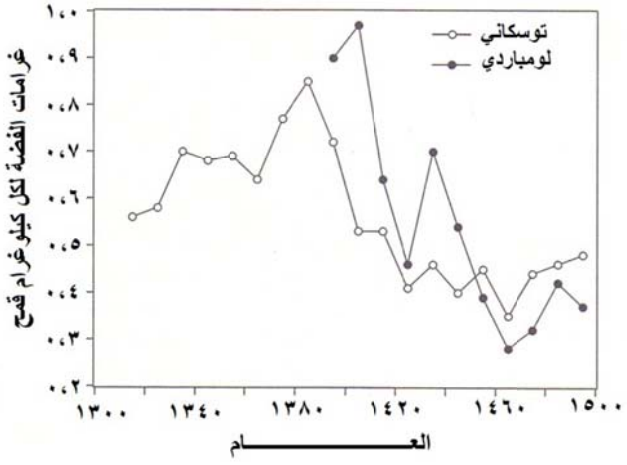

الشكل رقم (٣,٦). أسعار الحبوب في شمال إيطاليا إبان الفترة ١٣١٠–١٥٠٠ (بغرامات الفضة لكل كيلوغرام من الحبوب).

المصدر: Malanima (2002), available at http://gpih.ucdavis.edu/ Datafilelist.htm.

وبالطبع، مع تعافي عدد السكان تدريجياً، يتنبا النموذج المالتوسي بأن تنخفض مستويات المعيشة، وأن يستعيد الاقتصاد توازنه الأولي[٨٩]. لكن ذلك يتجاهل دور الاعتماد على المسار في العالم الواقعي، فكما يدفع ديفيد هيرلي على نحو مقنع في كتابه الرائع، فإن خبرة مستويات المعيشة الأعلى والزيادة في نسبة السكان المالكين، كانت تعني أن الزيادة في سكان أوروبا نظمتها بعد الأزمة كوابح وقائية، في مقابل الكوابح الإيجابية[٩٠](٥٣). وإذا ترجمنا ذلك إلى تأخر عمر الزواج للإناث، فإن عدد سكان أوروبا كان يمكن أن يواصل النمو دون أن تنهار مستويات المعيشة إلى مستواها

(٥٣) تدفع نظرية مالتوس بوجود نوعين من الكوابح: السلبية والوقائية، تحوُل دون النمو السكاني المفرط. تتمثل الكوابح السلبية في الشرور الكلاسيكية الثلاثة التي تزيد معدلات الوفيات: المجاعة والطاعون والحرب، وتتضمن الكوابح الوقائية العوامل التي تقلل معدلات المواليد مثل الإجهاض وتنظيم النسل والبغاء وتأخير الزواج والامتناع عن الزواج [المترجم].

الأولي. ويدفع هيرلي أيضاً بأن ندرة العمل دفعت التجديد التقني، من نوع مطبعة غتنبرغ التي استطاعت أن تشبع الطلب المتزايد على الكتب بطريقة أكفأ كثيراً من الطرق القديمة القائمة على النُسّاخ[٩١]. ومن أمثلة التقدم التقني الذي يوفر العمالة- في رأي هيرلي- الأسلحة النارية التي أحلت رأس المال ضمناً محل الجنود المُكْلِفين نسبياً[٩٢].

يقدم ستيفان ابشتاين Stephan Epstein سبباً سياسياً آخر للفائدة التي عاد بها الطاعون على أوروبا الغربية على المدى البعيد، إذ يذهب إلى أن الحكم غير المركزي للاقتصاد الإقطاعي كان عقبة أمام النمو، لأن السلطات المحلية كانت تفرض ضرائب على التجارة، وأن "المؤثر الأساسي على معدل الابتكار هو تكلفة التجارة"[٩٣]، كما في قول سميث بأن تقسيم العمل يقيده مدى السوق. ويقدم ابشتاين أدلة على أن "الابتكار الزراعي ارتبط عكسياً بكثافة الحقوق الإقطاعية، وأن النمو الصناعي الريفي ارتبط عكسياً بالسلطات التشريعية للمدن واللوردات"[٩٤]. وفي هذا السياق "انبثق الطاعون كحدث خارجي أسهم في انتقال الاقتصاد الإقطاعي من 'فخ التوازن' منخفض المستوى إلى مسار عالي النمو بتكثيف الضغوط التي ظلت تحتشد على مدى قرون"، وهي تحديداً التحرك في اتجاه بناء دول أكثر مركزية، كانت في حالة حرب مع إحداها الأخرى، ما تطلب نظاماً ضريبياً وأبنية إدارية على مستوى الدولة. فـ"وباء القرن الرابع عشر من خلال تغيير القدرة على التفاوض بين الأرض والعمل بهذه السرعة ... أطلق عملية تطورية سلسة نسبياً في موجة شومبترية(٥٤) من 'الهدم الابتكاري'.... وقام الحكام الطموحون مدعومين بنخبة ريفية غنية ... بتقوية الاندماج التشريعي لأقاليمهم، ما

(٥٤) نسبة إلى عالم الاقتصاد النمساوي جوزيف شومبتر Joseph Schumpeter الذي قدم نظرية اقتصادية تفسر النمو الاقتصادي بالتجديد التقني والروح التجارية الريادية [المترجم].

جعل الأسواق أكثر تنافسية، وحفز التتجير، ومهد الطريق للازدهار الطويل إبان القرن السادس عشر"[٩٥].

يذكر ماكيفيدي وجونز أن عدد سكان أوروبا ازداد من ستين مليون نسمة في العام ١٤٠٠ إلى واحد وثمانين مليوناً في العام ١٥٠٠[٩٦]. وقد ظلت الأجور الحقيقية الإنجليزية عالية جداً طوال القرن الخامس عشر (الشكل ٣- ٢) على الرغم من زيادة السكان الإنجليز بنحو ٥٠٪[٩٧]. وكذلك تكشف بيانات هاملتون أن الأجور الحقيقية كانت عالية جداً في نافارا في النصف الأول من القرن الخامس عشر، مع أن السكان الأيبيريين ازدادوا من ٦.٥ إلى ٧.٧٥ مليون نسمة على مدار القرن[٩٨]. وإجمالاً، يستنتج باموك Pamuk أن الأجور الحقيقية ظلت أعلى من مستوياتها قبل الطاعون حتى القرن السادس عشر، ليس في أوروبا الغربية وحدها، بل عبر عالم البحر الأبيض المتوسط[٩٩]. ويوضح ألين Allen أن إنجلترا والبلاد الواطئة (هولندا) استطاعت أن تتجنب انخفاض الأجور الحقيقية على المدى الأطول أيضاً[١٠٠].

وهكذا، فقد شهدت أوروبا إبان القرن الخامس عشر زيادة في عدد السكان ومستويات المعيشة. فهذه البيانات على الرغم من محدوديتها ترسم صورة لأوروبا أقل سكاناً في البداية، لكنها أكثر ثراء، وتكشف انخفاضاً متناسباً مع ذلك في الناتج والتجارة في السلع الضرورية، وزيادة حادة في واردات المواد الفاخرة مثل الفراء الشمالي والتوابل الشرقية. يفحص القسم التالي نتائج هذا التطور على التجارة بين أوروبا الغربية والشرقية.

التجارة بين أوروبا الغربية والشرقية إبان الفترة ١٣٥٠–١٥٠٠

سيطرت الرابطة الهانزية، وهي اتحاد للمدن الألمانية الشمالية شُكِّل لحماية مصالحهم التجارية المشتركة في الأسواق الخارجية، على تجارة البلطيق وبحر الشمال

إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠. كانت الرابطة من بداية وجودها إلى نهايته تُعنَى بالدرجة الأولى بالتدفق ثنائي الاتجاه للتجارة بين أوروبا الشرقية وشمال غرب أوروبا على طول محور نوفغورود – ريفال – لوبيك – هامبرغ - بروج-لندن[١٠١](٥٥). وعلى طول هذا الطريق التجاري الرئيس، كان الفراء والشمع من شمال روسيا وفنلندا السلعتين الأساسيتين اللتين تنقلان في اتجاه الغرب، فيما كانت الأقمشة الفلمنكية والملح من شمال ألمانيا وخليج بسكاي السلعتين الأساسيتين اللتين تتجهان شرقاً. وإلى جانب ذلك، كان النحاس والحديد من السويد والسمك من النرويج وإسكانيا(٥٦)، والحبوب والخشب من بروسيا وبولندا، سلعا أخرى رئيسة أضيفت إلى التدفق من شمال وجنوب محور نوفغورود- لندن الممتد بين الشرق والغرب. ويمكن وصف هذه التجارة بأنها تميّزت بتبادل المواد والمنتجات الأولية من روسيا وفنلندا ومناطق شرق البلطيق واسكندينافيا، في مقابل المواد المصنعة الغربية، خاصة الأقمشة الصوفية الفلمنكية.

وعلى الرغم من ندرة السلاسل الإحصائية، تتوفر بعض المؤشرات المتفرقة على توسع التجارة بين العام ١٣٥٠ والعام ١٥٠٠. فيذكر دولينغر Dollinger أن تجارة لوبيك في البلطيق ارتفعت من مئة وخمسة وثلاثين ألف علامة في العام ١٣٦٨ إلى ستمئة وستين ألف علامة في العام ١٤٩٢[١٠٢]. ونظراً لأن الأسعار انخفضت بحدة، ربما بنحو ٥٠٪ على مدى تلك الفترة، فإن ذلك يعني أن الزيادة في حجم التجارة ارتفعت ثانية إلى نحو الضعف. وارتفعت الصادرات الهانزية من الأقمشة الإنجليزية من ستة آلاف في العام ١٤٠٠ إلى خمسة عشر ألفاً بحلول العام ١٤٨٠.

---

(٥٥) ريفال Reval (في اللغة الألمانية والسويدية والنماركية) أو تالين Tallinn (باللغة الاستونية) هي عاصمة استونيا وأكبر مدينة فيها. هامبرغ Hamburg ثاني أكبر مدينة بألمانيا وثاني أكبر ميناء في أوروبا تقع على نهر ألبة. بروج Bruges عاصمة مقاطعة فلندرة في شمال بلجيكا [المترجم].

(٥٦) إسكانيا Scania مقاطعة في أقصى جنوب السويد عبارة عن شبه جزيرة على اللسان الجنوبي لشبه الجزيرة الاسكندينافية [المترجم].

كان الصيادون الفنلنديون والروس يأتون بالفراء من الغابات الشمالية وسهل التندرا، ثم يُجمَع الفراء في موانئ شرق البلطيق. وكانت أعلى أنواع الفراء قيمة هو فراء السمور الذي كان يباع في البندقية باثنتين وثمانين دوكاتية[٥٧] لكل مئة فروة في بداية القرن الخامس عشر. وكان فراء الدلق والقندس يباع بثلاثين وأربع عشرة دوكاتية على التوالي، في حين لم تتجاوز أسعار فراء الوشق والسنجاب والقضاعة وابن عرس عشر دوكاتيات للمئة فروة. كان الفراء بالتأكيد من سلع "المنزلة الاجتماعية"، ولذلك يوضح حجم الطلب عليه مدى قدرة القطاعات الأكثر غنى في أوروبا إبان القرون الوسطى، وكذلك النخبة المملوكية في العالم الإسلامي التي كان يعاد تصدير كثير من هذه المواد إليها، على الانغماس في حياة الترف والأبهة. ويذكر دولينغر الذي نقلنا عنه بيانات الأسعار السابقة أيضاً أن أسرة تجارية هانزية استوردت وحدها إلى فلندرة أكثر من ثلاثمئة ألف فروة إبان الفترة من العام ١٤٠٣ إلى العام ١٤١٥ من دانزيغ وريغا[٥٨] وريفال. وقد أبحرت قافلة من ثلاث سفن من ريغا إلى بروج محملة بأربعمئة وخمسين ألف فروة، إضافة إلى شمع وكتان بقيمة الفراء[١٠٣].

كان الشمع يأتي من النحل في الغابات الشمالية ويُجمَع للبيع للتجار الهانزيين وغيرهم. ومن المفترض أن الطلب على الشموع للاستخدام في الطقوس الدينية قد حفزته خبرة الطاعون. وكان الكهرمان سلعة ثمينة أخرى من سلع الترف تستخدم كمجوهرات، وكانت تجارته مربحة لدرجة أنها خضعت للاحتكار من جانب فرسان الطائفة التيوتونية[٥٩]، وهي أقوى كيان عسكري سياسي في بروسيا ومنطقة شرق البلطيق في ذلك الوقت.

---

(٥٧) الدوكاتية عملة ذهبية أوروبية قديمة [المترجم].

(٥٨) ريغا Riga عاصة لاتفيا وأكبر مدينة في دول البلطيق ومن أكبر مدن أوروبا الشمالية [المترجم].

(٥٩) الطائفة التيوتونية Teutonic Order جماعة صليبية من الفرسان بلغت من القوة إبان القرن الثالث عشر أنها شكلت دولة صليبية حول بحر البلطيق، كان مقرها بروسيا والمناطق المجاورة [المترجم].

وعلى مدار معظم هذه الفترة سيطرت الرابطة الهانزية على تجارة اسكندينافيا. وكانت النرويج تعتمد على واردات الحبوب من البلطيق التي كانت الرابطة توفرها عبر محطتها التجارية في بيرغن، في مقابل سمك القد المجفف. واستخدمت الرابطة تأثيرها على عرض الحبوب لانتزاع تنازلات تجارية من النرويج، مع أنها احترمت اتفاقية عدم التجارة شمال بيرغن. وكان للتجار الألمان دور بارز أيضاً في تجارة استوكهولم، وكانت الرابطة هي القناة التي دخلت من خلالها إمدادات النحاس والحديد عالي النوعية من السويد إلى السوق الأوروبية. وفرت الدنمرك الماشية والزبد في ذلك الوقت، على الرغم من أن ملوك الدنمرك الأقوياء كانوا من حين لآخر يهددون لوبيك والمدن الأخرى التابعة للرابطة بقواتهم البحرية. على أن النشاط الاقتصادي الرئيس الذي جمع الرابطة مع اسكندينافيا كان صناعة الرنغة المملحة في إسكانيا بشمال شرق الدنمرك. وكانت كميات الملح الهائلة المستوْردة من خليج بسكاي عن طريق قوافل كبيرة من السفن الهانزية، أحد المدخلات الأساسية في عملية تمليح وحفظ الرنغة التي كانت تصاد من شواطئ البلطيق[١٠٤].

كان الخشب من اسكندينافيا وروسيا وأقاليم شرق البلطيق سلعة تصديرية ثمينة أخرى، فضلاً عما يرتبط بها من توفير البوتاس(٦٠) والراتينج(٦١). وقد كان الخشب والقنب(٦٢) المستخدم في صنع الحبال من المدخلات الأساسية في صناعات بناء السفن في هولندا وإنجلترا ومدن الرابطة نفسها. وكذلك كان الخشب والحديد والنحاس سلعاً

(٦٠) البوتاس potash شكل غير نقي من كربونات البوتاسيوم، يستخدم منذ العصور القديمة في صنع الزجاج والصابون والسماد [المترجم].

(٦١) الراتينج resin مادة صمغية تسيل من معظم الأشجار عند قطعها أو جرحها، تستخدم لأغراض طبية وصناعية [المترجم].

(٦٢) القنب نبات من الفصيلة القنبية، تصنع منه الحبال وأكياس الخيش والورق والمنسوجات وغيرها، وتستخدم بذوره كطعام وفي إنتاج الزيت والشمع والراتينج وغيرها [المترجم].

إستراتيجية ضرورية للسفن الحربية وتسليحها. وحتى سهام القوس التي استخدمها الرماة الإنجليز في حرب المئة عام كانت – على ما يبدو – مستوردة من غابات أوروبا الشرقية.

أخذت أهمية الحبوب القادمة من بوميرانيا تتزايد لإطعام النرويج وفلندرة وهولندا، ما جعل الدول والمناطق الأخيرة تتخصص في صناعة الأقمشة الصوفية وتصديرها، اعتماداً على الصوف القادم من إنجلترا وإسبانيا. يتضح من ذلك أن شمال أوروبا إبان القرون الوسطى طور نمطاً شاملاً للتخصص والاعتماد المتبادل بين أقاليم بحر الشمال والمحيط الأطلسي في الغرب ومنطقة البلطيق في الشرق. وقد اكتسبت الرابطة الهانزية أهميتها من السيطرة التي حاولت أن تمارسها باعتبارها الوسيط الوحيد بين هذه المناطق الجغرافية المتنوعة. ولذلك كانت السيطرة على المضايق الدنمركية الضيقة والطريق البري عبر شبه جزيرة غوتلند الذي يربط بين لوبيك وهامبرغ ضرورية وحاسمة. تؤكد ذلك الحروب الكثيرة التي شنتها الرابطة في هذه الفترة. وكان هدف الرابطة هو منع الهولنديين والإنجليز من اقتحام منطقة البلطيق ومنع الاسكندينافيين من الخروج منها. وقد نجحوا في ذلك لقرن ونصف من الزمن، قبل أن يخضعوا في النهاية للهولنديين.

كان النبيذ سلعة مهمة أيضاً في التجارة الأوروبية إبان القرون الوسطى، وكذلك البيرة ولو بدرجة أقل. وقد تطور التخصص في زراعة الكرم مبكراً، وكانت بوردو وبيرغندي والألزاس وموزيل[٦٣] مناطق التصدير الرئيسة للكروم. وكان النبيذ

(٦٣) بوردو Bordeaux ميناء على نهر الجارون بجنوب غرب فرنسا. بيرغندي Burgundy منطقة تاريخية في غرب أوروبا تشكلت فيها كيانات سياسية مختلفة، مملكة أو دوقية أو كونتية، وبحدود مختلفة، وتتطابق اليوم مع المناطق الحدودية بين إيطاليا وفرنسا وسويسرا. الألزاس Alsace منطقة على الحدود الشرقية لفرنسا على الضفة الغربية لنهر الراين الأعلى بجوار ألمانيا وسويسرا. موزيل Moselle أحد روافد نهر الراين، يتدفق عبر فرنسا ولوكسمبرغ وألمانيا، يوصل الراين بمدينة كوبلنز Koblenz الألمانية [المترجم].

الراينلندي[٦٤] يصدّر إلى كل أنحاء ألمانيا ومنطقة البلطيق، وكان النبيذ الفرنسي رائجاً في إنجلترا والبلاد الواطئة. وكانت البيرة تنتج في معظم المدن الألمانية، وكانت هامبرغ وفيسمار[٦٥] من أكبر مصدّريها.

لكن ماذا عن النتائج الاقتصادية لهذه التجارة الشمالية بين أوروبا الشرقية والغربية؟ لقد أدى تعافي السكان والقوة العاملة بعد الطاعون، وفقاً لفكرة نسب العوامل البسيطة عند هيكشر- أولين[٦٦]، إلى زيادة الأسعار النسبية للسلع كثيفة الأرض مثل الحبوب والمنتجات الحيوانية، وكذلك الإيجار لكل هكتار من الأرض، وخفض الأسعار النسبية للسلع كثيفة العمالة مثل المواد المصنعة، وكذلك الأجور الحقيقية. أدى ذلك بدوره إلى تحسين شروط التبادل التجاري للدول الشرقية المصدّرة للحبوب، ما أدى إلى توسيع المساحة المزروعة ونمو الصادرات. تنطبق هذه التنبؤات على بولندا وبروسيا، وإلى حد ما على الدنمرك. وقد أحدث ذلك نتائج اجتماعية وسياسية بالغة الأهمية، كما يرى بوستان Postan ومالويست Malowist[١٠٥] وكثيرون غيرهما. فطبقة النبلاء في كل هذه الأقاليم التي كانت تستفيد دائماً من ارتفاع الإيجارات تمكّنت من استخدام سيطرتها على كل من القوة العسكرية والتأثير السياسي على الدول المركزية الضعيفة لتعزيز ربط الفلاحين بالأرض في حالة من "القِنانة من الدرجة الثانية"[٦٧]، وبذلك رفعوا ريوعهم أكثر. ولا بد أن الصناعات والحرف المحلية،

---

(٦٤) نسبة إلى منطقة راينلند Rhineland التي تقع على ضفتي نهر الراين في أوروبا الوسطى [المترجم].

(٦٥) فيسمار Wismar ميناء صغير بشرق ألمانيا على بحر البلطيق، كان من مدن الرابطة الهانزية [المترجم].

(٦٦) تفسر نظرية نسب عوامل الإنتاج factor proportions لهيكشر- أولين Heckscher-Ohlin اختلاف النفقات والأسعار النسبية في التجارة الدولية وفقاً للميزة النسبية أو الاختلاف في توزيع نسب عوامل الإنتاج بين الدول، وتأثير التجارة الدولية على عوائد عناصر الإنتاج في الدول الأطراف، والتمييز بين السلع التجارية بحسب العامل الإنتاجي الكثيف فيها [المترجم].

(٦٧) تصف حالة "القِنانة من الدرجة الثانية" second serfdom، في أوروبا الوسطى، حالة المزارع المستأجر المرتبط بقطعة أرض وراثية وبإرادة مالك الأرض. يختلف العبيد عن الأقنان في أن الأولين كان يمكن أن

وبالتالي ازدهار المدن وتأثيرها، قد تراجع في هذه البلاد، فضلاً عن السيطرة المتزايدة للتجار الأجانب على تجارة الجملة والقطاعي، وبخاصة إذا كان هؤلاء التجار أفضل تنظيماً وتمويلاً من نظرائهم المحليين. وهنا أيضاً تتوفر أدلة كافية على أن ذلك هو ما حدث فعلاً.

وعلى ذلك، فإن الفرق في نسب العوامل بين أوروبا الشرقية والغربية يمكن أن يذهب بعيداً إلى تفسير القضية المحيرة التي لاحظها كثير من المراقبين، وهي: كيف يمكن للسبب نفسه، وهو تعافي السكان بعد الطاعون، أن ينتج هذه النتائج الاجتماعية-السياسية المتباعدة تماماً مثل "القِنانة من الدرجة الثانية" في الحالة الأولى وتراجع الإقطاع وصعود المدن في الحالة الأخيرة. في كل المناطق، تمثل التأثير الحاسم للطاعون في رفع الأجور وخفض إيجارات الأراضي، ومن ثم زيادة طلب ملاك الأراضي على القِنانة. فيما ترجع الخبرات المختلفة لأوروبا الشرقية والغربية بالتأكيد إلى الاختلافات في "وفرة" القِنانة، حيث كان الحكام في المنطقة الأولى أكثر استعداداً لقبول مطالب ملاك الأراضي من نظرائهم في المنطقة الأخيرة. معنى ذلك أن تعافي التجارة والسكان جاء في صالح الحضر في الغرب والريف في الشرق. وعلى اعتبار أن هذه المكاسب الاقتصادية تترجم إلى مكاسب سياسية، فإن ذلك يمكن أن يساعد في تفسير الاستجابات المختلفة للتطور المؤسسي في المنطقتين[٦٨].

كان من السمات الأساسية لتجارة شمال غرب أوروبا مع الرابطة الهانزية عدم التوازن النقدي ضد المنطقة الأولى، الذي تضمن انتقال الفضة إلى المدن الألمانية

يباعوا ويُشتَروا بعيداً عن الأرض، في حين كان سادة الأقنان يتغيرون مع تغير الملاك، كأن المزارعين يباعون مع الأرض [المترجم].

(٦٨) يقدم ألين (Allen, 1998) ودومار (Domar, 1970)، من بين آخرين، حججاً مماثلة. فيما تظل إنجلترا لغزاً، لأن التحول الحضري لم يكن كثيفاً فيها.

الشمالية. لكن أين كانت هذه الفضة تذهب؟ كان بعضها يذهب بالتأكيد إلى نوفغورود وسمولنيسك[٦٩] لدفع الأثمان الغالية للفراء والكهرمان والشمع التي كان عليها طلب عالٍ في الغرب. وكانت الإمارات الروسية تستخدم الفضة جزئياً على الأقل لدفع الجزية للقبيلة الذهبية، مع تراجع الالتزام بدفع الجزية مع السنين، كما سنرى بعد قليل. وكان سكان المدن الألمانية يتميّزون أيضاً بميل قوي إلى شراء المنتجات الفاخرة من جنوب أوروبا، وبالدرجة الأولى من إيطاليا. ولذلك كان الطريق البري عبر نورمبرغ وفرانكفورت إلى ميلان يعيد توجيه الفضة المستنزفة من إنجلترا وفرنسا والبلاد الواطئة إلى المدن الإيطالية، وبخاصة ميلان وفلورنسا وجنوى ولوكا والبندقية. وكان الإيطاليون يوفرون احتياجات شمال غرب أوروبا أيضاً بطريقة مباشرة عبر البحر، وكانت السفن البندقية والجنوية تتردد بانتظام على لندن وبروج وغيرها من الموانئ الشمالية. وكانت المنتجات الفاخرة التي يبيعها الإيطاليون تتمثل أساساً في الأقمشة الصوفية عالية النوعية المنتجة في فلورنسا، والأقمشة الحريرية والمطرزة المنتجة في لوكا، والدروع والأسلحة عالية النوعية المصنوعة في ميلان. وإلى جانب ذلك، كانت هناك بالطبع التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي كانت البندقية وجنوى تحصلان عليها من تجارتهما مع العالم الإسلامي التي زاد طلب الأوروبيين عليها مع زيادة دخولهم. ولكي نحلل هذه التجارة يجب أن نتحول إلى التطورات الجيوسياسية في آسيا الوسطى وشرق آسيا.

التجارة البرية إبان الفترة ١٣٥٠–١٥٠٠: نتائج السلام المغولي

تبدد السلام المغولي نتيجة لزوال نظام نواب الخان في بلاد فارس في العام ١٣٣٥ والنزاعات الداخلية في الدول المغولية في آسيا الوسطى وسقوط سلالة يوان أمام

(٦٩) سمولنيسك Smolensk مدينة في منطقة بالاسم نفسه تقع على نهر الدنيبر في روسيا، على بعد ٢٢٠ ميلاً جنوب غرب موسكو [المترجم].

سلالة مينغ الصينية المحلية في العام ١٣٦٨. وفي حين استمرت الأنماط التجارية التقليدية بين الشعوب البدوية والمستقرة، مثل تبادل الخيول والجمال في مقابل الشاي والحرير، كان لغياب الحكم الإمبراطوري، حتى وإن ظل موحداً بدرجة ضعيفة بين المكونات المختلفة للإمبراطورية المغولية، نتائج جيوسياسية بالغة الأهمية، كان لها بدورها عواقب كبرى على الأنماط المستقبلية للتجارة العالمية.

كانت نهاية فترة السلام المغولي في الوقت عينه نهاية للسهولة النسبية التي كان التجار الأوروبيون يستطيعون أن ينتقلوا بها عبر أنحاء أوراسيا كافة. فطُرِد الأجانب من الصين، وحدثت مذابح للأوروبيين في بلاد فارس وتركستان، من بين مناطق أخرى. ولذلك "انحسرت الحدود الشرقية للتجارة الأوروبية الجنوبية تدريجياً من بحر الصين إلى حافة البحر الأبيض المتوسط، وفقدت حتى الملاجئ الآمنة للمستعمرات التجارية الإيطالية"، وبذلك وجد التجار الأوروبيون أنفسهم مجدداً معتمدين على "عنق الزجاجة المصري"[١٠٦]. وقد بدا لفترة قصيرة أن الوضع السابق يمكن أن يعود بسيف الفاتح العظيم تيمور (تيمورلنك) من آسيا الوسطى. كان تيمور ينتمي عرقياً إلى الأتراك، لكنه كان ينتسب سياسياً إلى خانات مغول الجغتاي، وقد شنّ سلسلة من الهجمات على المناطق المجاورة، البدوية والمستقرة على حد سواء، وسبب دماراً كبيراً وجمع ثروة ضخمة من النهب. وكانت عاصمته سمرقند والمدن الأخرى بالمنطقة المستفيد من ثمار فتوحاته، إذ انعكست على العمارة الرائعة وتشييد المراصد والمكتبات العامة. ويذهب أدشيد إلى أن أفعاله المدمرة كان يكمن وراءها منطق أساسي، هو تأمين طريق الحرير الجنوبي وتحويل تجارة القوافل إلى هذا الطريق من الطريق الشمالي البديل الذي كانت تسيطر عليه القبيلة الذهبية[١٠٧]. ويُفَسّر تدمير تيمور لمدينة سراي، عاصمة سلالة القبيلة الذهبية الواقعة على نهر الفولغا ومحور تجارتها، باعتباره خطوة محسوبة

في اتجاه هذا الهدف. وكذلك يُفَسّر غزوه لحلب بسوريا وانتزاعها من المماليك باعتباره شكلاً من التأمين للطرف الغربي لهذا الطريق التجاري، وغزوه للصين الذي خطط له في عام وفاته في العام ١٤٠٥ باعتباره محاولة لوضع يده على مصدر السلع التي كانت تنقل في اتجاه الغرب على طول هذا الطريق.

"نظر الكثيرون" في أوروبا "إلى تيمورلنك باعتباره جنكيزاً خاناً جديداً سيعيد السلام من خلال الدمار، والتجارة من خلال السلام في الأقاليم الشاسعة التي أخضعها"، ورحبوا به كثيراً بسبب تقدم الأتراك العثمانيين الذين كانوا يتوسعون في البلقان ويهددون القسطنطينية في ذلك الوقت[١٠٨]. وبالفعل أدت الهزيمة الساحقة التي تكبدتها قوات السلطان العثماني بايزيد Bayezid (أو بيازيت Bejazet كما أسماه مارلو Marlowe) على يديه في أنقرة في العام ١٤٠٢ إلى تأجيل سقوط القسطنطينية لنحو خمسين عاماً. لكن بموت تيمورلنك في العام ١٤٠٥، تلاشى الحلم، وتواصل التقدم العثماني، وسقطت القسطنطينية نفسها في العام ١٤٥٣ أمام السلطان محمد الثاني "الفاتح"، فرجعت التجارة الأوروبية- الآسيوية مرة أخرى إلى الطرق البحرية التقليدية التي ناقشناها سابقاً.

على أن إبعاد أوروبا عن آسيا لم يكن يعني أن التجارة البرية تراجعت أو ركدت جلها. فالقرن الخامس عشر، كما سنرى، كان "عصر التجارة" في جنوب شرق آسيا، مدفوعاً بتوسع الصين في عهد إمبراطورية مينغ وتعافي أوروبا والبحر الأبيض المتوسط من الطاعون. ولذلك كان من المستغرب أن نجد أن الازدهار على طرفي طريق الحرير القديم لم يدعم استمراراً مقابلاً للتجارة البرية أو حتى توسيعها، بالتوازي مع نمو التجارة البحرية. لكن من المؤكد أن الأوروبيين لم يعودوا يشاركون بطريقة مباشرة في هذه التجارة، لكن مشاركتهم من عدمها لم تكن ذات بال في عصر كانت أوروبا

فيه لا تزال لاعباً صغيراً في الحياة الاقتصادية لآسيا. ولذلك أشار بحث ثمين جداً لموريس روسابي Morris Rossabi إلى أن تجارة القوافل بآسيا الوسطى لم تتراجع، بل ازدهرت طوال القرن الخامس عشر[١٠٩]. فعلى الرغم من سقوط إمبراطورية يوان والإمبراطورية المغولية كلها، ما عدا القبيلة الذهبية، حافظت الدول التي خلفتها في آسيا الوسطى وإيران وتركيا على السلام والأمن على طول طرق التجارة.

كان تيمور- كما رأينا - حريصاً جداً على الحفاظ على الطريق البري الرئيس من الصين إلى الغرب مفتوحاً، وكذلك كان أحفاده، وبخاصة شاه رخ(٧٠) وألوك بيك(٧١)، اللذين حكما من مدينتي القوافل المزدهرتين هيرات وسمرقند، حريصين على جذب التجارة إلى أراضيهما وعبرها، للإنفاق على برامج البناء الطموحة والمشروعات العلمية التي أطلقاها، مثل المرصد العظيم الذي شيّده ألوك بيك في سمرقند. وكان الحكام التتار- المغول المسلمون لمدن الواحات حامي(٧٢) وتورفان(٧٣) بالقرب من الطرف الشرقي لطريق الحرير حريصين على بيع خيولهم وجمالهم في مقابل الحرير والمعادن وغيرها من المواد المصنعة من الصين، وإرسال سفارات "تعبير عن الولاء" أو بعثات تجارية متخفية إلى الصين. وقد أرسلت تورفان وحدها ما لا يقل عن أربع وخمسين بعثة بين العامين ١٤٠٧ و١٥٠٢[١١٠]. وكانت بعض المدن الفارسية،

---

(٧٠) شاه رخ ميرزا أو شاه رخ التيموري Shahrukh (٣٠ أغسطس ١٣٧٧ إلى ١٢ مارس ١٤٤٧) الابن الرابع والأصغر لتيمور لنك مؤسس الإمبراطورية التيمورية في آسيا الوسطى، حكم الجزء الغربي من الإمبراطورية ممثلاً في معظم بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر بين العامين ١٤٠٥ و١٤٤٧ وكانت عاصمته هيرات [المترجم].

(٧١) ألوك بيك Ulugh Beg أو ميرزا محمد طارق بن شاه رخ (٢٢ مارس ١٣٩٤ في فارس إلى ٢٧ أكتوبر في سمرقند) حفيد تيمورلنك والابن الأكبر لشاه رخ، حكم بلاد ما وراء النهر، وكان عالم فلك ورياضيات [المترجم].

(٧٢) حامي Hami أو قومول بلغة الأيغور واحة في ولاية قومول بمقاطعة شينجيانغ الصينية [المترجم].

(٧٣) تورفان Turfan أو توربان واحة في ولاية توربان بمقاطعة شينجيانغ الصينية [المترجم].

مثل شيراز وأصفهان، ترسل هي الأخرى بعثات دبلوماسية وتجارية. وثمة سجلات لمسؤولين صينيين أُرسِلوا في بعثات دبلوماسية و"تقصي حقائق" إلى الأقاليم الإسلامية في جنوب غرب آسيا. وجاء تأسيس الإمبراطورية العثمانية في منتصف القرن الخامس عشر أيضاً ليعزز السلام والأمن على طول طرق التجارة، وكان التجار من مناطق بعيدة مثل تركيا وشبه الجزيرة العربية وحتى مصر يسافرون إلى الصين إبان القرن الخامس عشر[١١١].

ظهور روسيا

أشرنا آنفاً إلى أن القبيلة الذهبية لم تفرض حكماً مباشراً على الإمارات الروسية التي سيطروا عليها، وإنما اكتفوا بانتزاع الجزية وتوجيه الدول التابعة فرادى للحفاظ على تبعيتهم لها. وجاء التمزق الذي سببه الطاعون ليضعف قبضة القبيلة الذهبية على الدول الروسية التابعة لها، كما كان التخريب الذي تعرضت له على أيدي تيمورلنك ضربة أخرى شديدة لها. وفي حين كان المستفيد الأول هو دوقية ليتوانيا الكبرى الصاعدة، كان المستفيد الأكبر على المدى البعيد هي الإمارة الأقوى بين الإمارات الروسية، وهي موسكو.

وهنا يكتسب عهد إيفان الثالث "الأكبر" (١٤٦٢-١٥٠٥)- جد إيفان الرهيب- أهمية كبرى. فقد وحّد إيفان الثالث أو "جمع" الأراضي الروسية التي كانت في السابق مقسمة بين دول مدينية أو جمهوريات أو إمارات مستقلة تحت السيادة المسكوفية. وتصدى إيفان الثالث لاختراق الحدود الغربية لروسيا من جانب دوقية ليتوانيا الكاثوليكية الرومانية وفرسان الطائفة الليفونية[٧٤] الألمانية، ما أسهم في فتح طرق التجارة إلى أوروبا الشرقية والوسطى وإلى البلطيق. وأدى إخضاع جمهورية

(٧٤) كانت الطائفة الليفونية Livonian Order عضواً بالطائفة التيوتونية من العام ١٤٣٥ إلى العام ١٥٦١، راجع حاشية سابقة حول الطائفة الأخيرة [المترجم].

نوفغورود التجارية الكبرى في العام ١٤٧٨ إلى تعزيز ثروة موسكو وقوتها بدرجة كبيرة. كانت نوفغورود تسيطر على الامتدادات الشاسعة للإقليم الذي كانت تجمع منه الفراء والمنتجات الغابية التي كانت تبيعها إلى الرابطة الهانزية والتجار الغربيين الآخرين، وقد وُزِعت هذه الأراضي على أتباع موالين لإيفان. كما تمكّن إيفان من خلال مزيج ماكر من القوة والدبلوماسية من مد النفوذ المسكوفي إلى الخانيات التترية[٧٥] في القرم وقازان[٧٦] وما بقي من دولة القبيلة الذهبية التي باتت تعرف باسم "القبيلة العظمى" Great Horde، ما أعطاه وصولاً إلى المناطق المجاورة لبحر قزوين والبحر الأسود. وكان سقوط القسطنطينية أمام الأتراك العثمانيين في العام ١٤٥٣ يعني أن إيفان أصبح الملك الأرثوذكسي الشرقي الوحيد في زمنه، وأعطاه زواجه من صوفيا ابنة أخي الإمبراطور البيزنطي الأخير الحق في ادعاء التراث البيزنطي واعتبار موسكو روما الثالثة والأخيرة.

نتجت هذه الإنجازات الكبيرة بالدرجة الأولى عن إعادة التنظيم المالي والعسكري التي نفذها إيفان في الدولة المسكوفية، وهي العملية التي قامت على إيجاد "طبقة وسطى جديدة من موظفي الدولة" مُنِحت الضِياع والسيطرة على الأقنان، في مقابل العمل كقوة فرسان متجولة ومنضبطة قادرة على صد كل من الفرسان الليتوانيين والليفونيين والخيالة التتريين من السهل. و"مع نهاية عهد إيفان الثالث، كانت موسكو قد أصبحت مركزاً تجارياً، جمع تجاره أراضيهم الشمالية مع قازان ومراكز الأسواق الجنوبية على البحر الأسود لبناء شبكة تجارية واحدة"[١١٢]. خَلَف إيفان الثالث ابنه فاسيلي الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣) الذي كان هو الآخر حاكماً مقتدراً،

(٧٥) الخانية khanate هي الدولة التي يحكمها خان لدى الشعوب التركية المغولية [المترجم].
(٧٦) قازان Kazan عاصمة جمهورية تترستان وأحد أكبر المدن الروسية، تقع على ملتقى نهري الفولغا وكازانكا في روسيا الأوروبية [المترجم].

وإن لم يكن في اقتدار أبيه الفذ. استطاع فاسيلي أن يحافظ على المكاسب التي حققها أبوه وأن يوسعها بإخضاع جمهورية تجارية روسية مزدهرة أخرى، هي بسكو Pskov وانتزاع سمولنيسك- تلك المدينة والحصن الرئيس- من الليتوانيين. قضى فاسيلي معظم عهده في نزاع مع حلفاء أبيه، وهم التتر القرميون، ومع قازان، فيما استمرت الحروب مع ليتوانيا في الغرب. في حين تطورت العلاقات مع الإمبراطورية العثمانية إيجابياً، تأسيساً على قدرة موسكو على توفير فراء السمور والقاقم الثمينين اللذين كان بلاط اسطنبول يثمّنهما كسلع تعزز الهيبة الرسمية. تمثل أحد مصادر النزاع مع التتر القرميين في أنهم فقدوا دور الوسيط الذي لعبوه بنجاح بين المسكوفيين والعثمانيين، نتيجة لأن القوتين الكبريين أقامتا علاقات ثنائية مباشرة ومتنامية. ويذكر كرومي Crummey أن المساحة التي كانت موسكو تحكمها زادت أكثر من ثلاثة أضعاف بين اعتلاء إيفان الثالث العرش في العام ١٤٦٢ ووفاة فاسيلي الثالث في العام ١٥٣٣، وفي أثناء ذلك تحولت موسكو من مجرد "إمارة طموحة" إلى "دولة قومية شاسعة المساحة"[١١٣]. وفي النهاية، عملت الإمبراطورية الروسية على توحيد معظم شمال أوراسيا، ما أعطى الأوروبيين مجدداً وصولاً مباشراً إلى تجارة القوافل الآسيوية، كما سنرى في الفصل الخامس.

الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط والتجارة الدولية إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠

ليس من المستغرب أن تؤدي قرون من النزاع حول الأراضي المقدسة ومغازلة أوروبا للمغول وهجرها لتجارة البحر الأحمر التقليدية في أثناء فترة السلام المغولي إلى تنفير السلاطين المصريين من البنادقة وغيرهم من التجار الكفار. علاوة على أن العالم الإسلامي الذي أظهر كل هذا الازدهار والروعة مع منعطف الألفية، دخل في حالة

ركود وتراجع اقتصاديين مطولين، أطلقها الطاعون وعواقبه السكانية المستمرة. استمر الحكم المملوكي في مصر وسوريا، لكن المماليك الجراكسة الذين آلت إليهم السلطة بعد المماليك الأتراك السابقين في العام ١٣٨٢ تبنوا سياسات قائمة على النهب تجاه كل أشكال النشاط الاقتصادي في البلاد(٧٧). فلم يواصلوا الاستغلال التقليدي لطبقة الفلاحين وحسب، بل فرضوا أيضاً الضرائب الباهظة والبيع الجبري على الإنتاج الصناعي والتجارة. وتبدد الاستقرار النقدي الذي حققته الدول السابقة بإدخال النقود النحاسية على نطاق أوسع. وتراجع الإنتاج الزراعي نتيجة لتناقص القوة العاملة والفشل في الحفاظ على البنية التحتية للري وغارات البدو وانكماش عدد من الصناعات، من المنسوجات إلى تكرير السكر والورق، بسبب الضرائب الباهظة والمنافسة من الواردات الأوروبية. وكانت العائدات التي كان المماليك يبتزونها من الاقتصاد، فضلاً عن ريوعهم من تجارة العبور في التوابل، تُنفَق بالدرجة الأولى على استهلاك سلع الترف من جانب النخبة والحروب المُكْلِفة ضد القبائل البدوية المتمردة والأتراك العثمانيين الأقوياء جداً، كما انطبعت فترة أواخر القرن الرابع عشر أيضاً بالدمار الذي ألحقه تيمورلنك بسوريا. ويقدم أشتور Ashtor وليفانوني Levanoni[١١٤] وكثير من المرجعيات الأخرى صورة سوداوية جداً للحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي في ذلك الوقت.

---

(٧٧) ينقسم حكم المماليك في مصر إلى حقبتين: المماليك البحرية والمماليك البرجية. سميت دولة المماليك البحرية بذلك الاسم بسبب سكناهم في جزيرة الروضة في نيل القاهرة أو لقدومهم من البحر، وكانت غالبيتهم من الأتراك، بدأت دولتهم في العام ١٢٤٩ بعد وفاة الملك الصالح في أثناء الحملة الصليبية السابعة، حين نصّب المماليك زوجته شجر الدر سلطانة على مصر، ولما احتج أمراء الأيوبيين والخليفة العباسي المستعصم في بغداد على تولية امرأة عرش مصر، تزوجت شجر الدر من الأمير المملوكي عز الدين أيبك، واستمرت دولتهم حتى العام ١٣٨١، حين انتقل الحكم إلى المماليك البرجية أو مماليك البرج أو القلعة الذين كان غالبيتهم من الجراكسة، واستمر حكمهم حتى الغزو العثماني ومقتل الأشرف قنصوه الغوري في مرج دابق في العام ١٥١٦ [المترجم].

كان من علامات التراجع النسبي للعالم الإسلامي والصعود النسبي لأوروبا الغربية الانقلاب التدريجي للأنماط التجارية التي سادت سابقاً بين الشريكين[١١٥]. فكما رأينا في مواضع سابقة، كانت الصادرات الأوروبية في بداية الألفية تتكون في الأساس من السلع غير المصنعة، باستثناء واحد أو اثنين موثقين جيداً، مثل السيوف الفرنجية، في مقابل مواد مصنعة وسلع فاخرة عالية القيمة. وجاء التراجع الصناعي في المناطق المملوكية ليضع أوروبا في صورتها التقليدية باعتبارها "المركز" الاقتصادي، فيما وجد العالم الإسلامي نفسه يلعب دور "المحيط" أكثر فأكثر. ففي مجال صناعة المنسوجات، كانت أوروبا القرن الثالث عشر، وليس العالم الإسلامي، هي التي تبنت المغزل الآلي والنول ذا المِدْوَس ومشاغل التقصير المدارة بالماء. يقدم أبولافيا المثال الكاشف لنسيج الفستيان، ذلك الخليط من الكتان والصوف الذي كانت إيطاليا تنتجه وتصدّره والذي أخذ اسمه من صناعة الكتان بالفسطاط أو القاهرة القديمة التي كانت مورِّده الرئيس إلى عالم البحر الأبيض المتوسط[١١٦](٧٨). وحدث أيضاً في صناعات أوروبية أخرى، مثل الحرير، إحلال واردات مماثل، تلاه تصدير إلى المصدر الأصلي الذي كانت تأتي منه الواردات. وكان الإيطاليون يشترون الرماد القلوي من سوريا لصناعة الزجاج والصابون، وأزاح زجاج المورانو Murano البندقي الزجاج السوري واحتل صدارة الصناعة. كما تقدمت صناعة الورق كثيراً في أوروبا مقارنة بالعالم الإسلامي. فيما كانت زراعة القطن، وبدرجة أقل قصب السكر، للتصدير أحد السمات الإيجابية القليلة للاقتصاد المملوكي في تلك الفترة، لكن حتى هذا النجاح الوحيد كان الفاتحة لظهور العلاقة "الاستعمارية" مع أوروبا لاحقاً(٧٩).

---

(٧٨) معنى ذلك أن اسم نسيج الفستيان fustian مأخوذ من اسم القاهرة القديمة الفسطاط Fustat [المترجم].

(٧٩) كان القطن أحد المحاصيل النقدية أو التجارية التي استغلها الاستعمار الإنجليزي في مصر بداية من العام ١٨٨٢، حيث كان الناتج يسهم في تغذية مصانع المنسوجات في لانكشاير [المترجم].

تختلف هذه الصورة لنتائج الطاعون جذرياً بالطبع عن نتائجه الإيجابية على أوروبا الغربية التي ناقشناها قبل قليل، التي تمثلت في ارتفاع الأجور الحقيقية ومعدل الدخل الفردي وتحسن السكان والناتج مقارنة بمستوياتها السابقة. لكن لماذا تُحدِث الصدمة السكانية الخارجية نفسها هذه النتائج المتباعدة تماما؟ يذهب أشتور إلى أن ارتفاع الأجور الحقيقية في مصر وسوريا بعد الطاعون كان أحد أسباب التراجع الصناعي المملوكي، لكن هذا التفسير ليس مقنعاً، لأننا رأينا أن ارتفاع الأجور الحقيقية في أوروبا كانت له تأثيرات مفيدة بعيدة المدى.

ثمة منظور بديل تقدمه دراسة نُشرت مؤخراً حول التأثيرات الفارقة للطاعون في مصر وإنجلترا[١١٧]. تتشابه رواية بورش Borsch لتأثير الطاعون على إنجلترا في أساسياتها مع الرواية التي قدمناها في القسم السابق حول أوروبا الغربية كلها، وهي رواية تتطابق مع تنبؤات النموذج المالتوسي المُحْدَث البسيط للأسواق التنافسية للسلع والأرض والعمل. أما في مصر المملوكية، في المقابل، فإن نظام التخصيص غير الوراثي للأراضي للقادة العسكريين مدة بقائهم في المناصب فقط قد نزع من هؤلاء الملاك كأفراد الحافز لتنفيذ استثمارات مفيدة طويلة المدى، بينما كانت لهم مصلحة جماعية كأعضاء في الطبقة الحاكمة المسلحة نفسها في الحفاظ على ريوعهم. ولذلك تعاملوا مع ندرة العمل بإجراءات قاسية ضد الفلاحين للحفاظ على ريوعهم على حساب الفلاحين، وحين ثبت أن ذلك غير كاف، وسّعوا نهبهم إلى الحرفيين والتجار الحضريين. وثمة فرق مهم آخر، وهو أن الزراعة المصرية كانت تعتمد على ضبط فيضان النيل وتوزيع مياهه عبر نظام معقد من أعمال الري المركزية والمحلية. وعلى ذلك، فإن الحفاظ على الريوع في المدى القصير جاء على حساب طبقة الفلاحين، وأيضاً على حساب صيانة الأشغال العامة مثل نظام الري.

أدت المشكلات الناتجة عن الطاعون أيضاً إلى زيادة الهجمات البدوية على أراضي السكان المستقرين، على الرغم من الانتقام الوحشي من جانب النظام المملوكي. ونتيجة لكل هذه العوامل، يدفع بورش بأنه في حين انخفض سكان مصر بنسبة ٥٠٪، انخفض الناتج الزراعي بنسبة ٦٨٪ على الأقل[١١٨]. من الواضح أن الاختلاف عن إنجلترا وبقية أوروبا الغربية كان جذرياً بالفعل. فلو انخفض معدل الدخل الفردي نتيجة للطاعون، فإن النموذج المالتوسي يتنبأ بأن يولّد ذلك مزيداً من الانكماش السكاني، وليس التعافي التصحيحي الذي حدث في أوروبا الغربية. علاوة على أن تكرار ضربات الطاعون، ست عشرة مرة في مصر وخمس عشرة مرة في سوريا بين العقد السابع من القرن الرابع عشر والعقد الأول من القرن السادس عشر، يبدو أنها كانت أكثر تواتراً وحِدة بكثير منها في أوروبا الغربية[١١٩].

ولو انخفض معدل دخل الفرد في مصر، وبقي ريع الأراضي كما هو، وارتفعت الأجور الحضرية[١٢٠]، فلا بد أن مستويات معيشة الفلاحين تدهورت كثيراً. ومؤكد أن ذلك أعطاهم حافزاً للتخلي عن زراعة المحاصيل التجارية لصالح الزراعة المعيشية، أو الهرب إلى المدن أو الصحاري المحيطة، ولا بد أن هذا بدوره خَفّض ريع الأراضي والأجور الحضرية. ولو كان المماليك قد نجحوا في الحفاظ على الريوع، فلا بد أن ذلك نتج عن عدم حركية الفلاحين المصريين جميعهم، على الرغم من أدلة الفرار من الريف إلى الحضر التي ذكرها بورش[١٢١]، والتي أكدها غارسين Garcin الذي يذكر أن عدد سكان القاهرة ظل مستقراً على الرغم من الانخفاض في عدد السكان الإجمالي[١٢٢]. وترى جانيت أبو لغد أن الحركية القليلة للفلاحين المصريين مقارنة بنظرائهم الأوروبيين الغربيين كانت أحد الفروق الأساسية بين المنطقتين في تلك الفترة[١٢٣](٨٠).

(٨٠) يبدو أن التصاق المصري بأرضه ظاهرة عابرة للعصور، بداية من زمن الفراعنة، مروراً بالعصر الإسلامي، وحتى العصر الحديث. تجلى ذلك قديماً في رد الملك سنوسرت على سنوحي عندما كتب له

يتساءل إيفسي دومار Evsey Domar في تحليله الكلاسيكي لأسباب القِنانة والعبودية عن الأسباب التي حالت دون رجوع القِنانة في أوروبا الغربية بعد الطاعون، مع أن ملاك الأراضي كان من المرجح أن يستفيدوا من إجبار العمال الريفيين على قبول مستويات معيشية أدنى. وجاءت إجابته أنه "لم يكن من الممكن إرجاع القِنانة دون أن يتحد ملاك الأراضي بدرجة معقولة في ضغطهم على الحكومة ودون أن تكون الحكومة راغبة في أن تنفذ مطلبهم وقادرة على ذلك"[١٢٤]. ومن الواضح أن هذه الشروط لم تتوفر في إنجلترا. فقد حاول البرلمان عدة مرات أن يسيطر على حركية الفلاحين، لكن دون جدوى. لكن في المقابل، كان النظام المملوكي الذي كانت تهيمن عليه نخبة عسكرية مالكة للأرض قابلاً لدعم محاولات الملاك للحفاظ على ريوعهم أو رفعها، إما بإجراءات قانونية أو بالعنف[١٢٥].

كان من شأن الحركية المنخفضة بين القطاعات أن تعيق النمو الصناعي في مصر. وكانت الضرائب الثقيلة عبئاً آخر على القطاع. وهذان العاملان يمكن أن يساعدا في تفسير تراجع القطاع الصناعي بالعالم الإسلامي نسبة إلى أوروبا الغربية في تلك الفترة. علاوة على أن المناخ شبه القاحل جعل الزراعة المصرية معتمدة على الصيانة الدائمة لنظام الري، وهو ما لم تستطع البنية المؤسسية المملوكية اللصوصية أن توفره في ظل الأزمة السكانية التي كانت أشد وأطول كثيراً منها في أوروبا الغربية. وكما وثق ليفانوني وغارسين بغزارة[١٢٦]، فإن محاولة ملاك الأراضي الحفاظ على دخولهم على

طالباً السماح له بالعودة إلى مصر من بلاد الرعاة بفلسطين: "لن تموت في بلاد غريبة، ولن يواريك الآسيويون الثرى، ولن توضع في جلد كبش عندما يُصنَع لك تابوتك. لقد مر وقت طويل وأن تهيم في الأرض! فكر في جثتك وعُدّ". ولا يزال هذا الارتباط بالأرض باقياً إلى اليوم. فأخشى ما يخشاه المصري هو أن يموت أو يدفن في أرض غريبة. لكن بعيداً عن المسحة الرومانسية في هذه الظاهرة، فمن المؤكد أنها أثرت سلباً على تقدم المجتمع والاقتصاد. فالحركية والضرب في الأرض إحدى السمات الأساسية للشعوب التي تكون القوة والغلبة من نصيبها [المترجم].

الرغم من انخفاض السكان والناتج أدت إلى انقسامات شديدة ونزاعات بين السلطان وكبار الأمراء والمجندين الجدد المنفلتين، ما أضر بشدة بالفعالية والانضباط العسكريين لهذه الطبقة الحاكمة الأجنبية. ولذلك، لم تتعاف مصر المملوكية بالكامل من الطاعون، سواء من ناحية عدد السكان أو الازدهار أو التماسك السياسي أو القوة العسكرية.

كان ذلك كله يعني أن التجار الأوروبيين الراغبين في شراء التوابل في الإسكندرية وجدوا أنفسهم يتعاملون مع شريك في الدولة المملوكية متلهف لابتزاز أكبر قدر من الربح منهم ومن نظرائهم المحليين. من ذلك أن السلطان برسباي (١٤٢٢–١٤٣٨) لعدم قناعته بالدخل التقليدي من الضرائب على تجارة العبور في التوابل، حاول أن يفرض احتكاراً حكومياً لزيادة العائدات. وقد أدى هذا الإجراء إلى إبعاد تجار الكارم الذين كانوا يديرون التجارة وجمعوا ثروات ضخمة منها، فضلاً عن أنهم كانوا يسهمون بسخاء في خزينة الدولة. وقاوم تجار التوابل البنادقة والأوروبيون الآخرون محاولات السلطان لإجبارهم على دفع أثمان باهظة، وفي النهاية باءت جهوده بالفشل، كما يقول أشتور[١٢٧]. ودفع الضغط المالي مصر إلى مواصلة محاولة تعظيم أرباحها على مدى ما بقي من القرن. ولذلك طلب السلطان في العام ١٤٨٠ أن يحصل على مئة وعشر دوكاتيات ثمن لفة الفلفل الواحدة، في حين كان سعرها السوقي خمسين دوكاتية فقط. لكن البنادقة رفضوا، فمُنِعوا من مغادرة الميناء إلى أن دفعوا سبعين دوكاتية للفة الواحدة[١٢٨].

تميّزت التجارة في البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة بالتنافس المستمر بين البندقية وجنوى. وكانت السلع الرئيسة التي يحتاجها التجار الأوروبيون هي الفلفل والزنجبيل، بينما كان القرنفل وجوز الطيب الأغلى ثمناً يتكسبان أهمية متزايدة. وكما أكد أشتور، فقد ازداد الطلب على القطن الخام كمدخل في صناعة المنسوجات التي

أقيمت في جنوب ألمانيا وأوروبا الوسطى وإيطاليا[١٢٩]. وفي المقابل كانت السلعة التصديرية الرئيسة إلى العالم الإسلامي هي الأقمشة الصوفية، بداية من المنتجات عالية النوعية من فلورنسا وفلندرة، حتى الأنواع الأرخص من كاتالونيا وفرنسا. وكانت المعادن أيضاً من الصادرات المهمة، خاصة النحاس. وكان زيت الزيتون يُصدّر من إسبانيا وشمال أفريقيا إلى مصر وسوريا عن طريق المدن الإيطالية التي مكّنتها هيمنتها على الشحن البحري من التجارة حتى في السلع المنتجة داخل العالم الإسلامي نفسه.

وعلى مدار هذه الفترة كانت البندقية ترسل قوافل منتظمة من السفن إلى الإسكندرية وبيروت. وفيما ظل عدد القوافل ثابتاً في المتوسط على الرغم من التقلبات[١٣٠]، ازداد حجم التجارة بفضل ازدياد سعة السفن كثيراً في السنوات الأخيرة من هذه الفترة. كان صعود البندقية في تجارة التوابل، وفقاً لأشتور، يستند إلى وصولها إلى الفضة والنحاس المستخرجين من أوروبا الوسطى اللذين كان الطلب عليهما كبيراً من جانب المماليك، وأيضاً إلى أسواق التوابل التي أسستها من قبل في ألمانيا وشمال أوروبا من خلال صلاتها بنورمبرغ. وثمة عامل آخر تمثل في المقاومة الشرسة للسلطان برسباي من جانب الجنويين والكتالونيين، ما جعلهم الشركاء التجاريين الأقل تفضيلاً عند التخلي عن محاولة الاحتكار الحكومي بعد وفاته في العام ١٤٣٨. علاوة على أن الكتالونيين كانوا يمارسون القرصنة، ما تسبب في إعاقة تجارتهم بفعل انتقام القوى الإسلامية منهم.

كان نمط التجارة الجنوية في البحر الأبيض المتوسط مختلفاً عن نظيره البندقي. فقد كانت قوة جنوى تكمن في مستعمراتها في بيرا القريبة من القسطنطينية وفي خيوس(٨١) على بحر إيجة. احتكرت جنوى صادرات الشب من منطقة إنتاجه الرئيسة، وهي

(٨١) خيوس Chios خامس أكبر جزيرة يونانية في بحر إيجة، تبعد سبعة كيلومترات عن ساحل الأناضول [المترجم].

فوكيا[٨٢] بآسيا الصغرى، وكانت تصدّره مباشرة إلى فلندرة التي كان يستخدم فيها كمدخل أساسي في صبغ الأقمشة. وكانت تنقل التوابل التي تشتريها من الإسكندرية ودمشق مباشرة إلى سوثامبتون Southampton بإنجلترا وسليوز Sluys بفلندرة. وكانت خيوس المصدر الرئيس للمصطكاء المستخدمة في الدهانات والعطور، وكانت تُصدّر إلى كل من أوروبا والعالم الإسلامي. واستمر تصدير العبيد من منطقة البحر الأسود إلى المماليك في مصر. وكانت جنوى تحصل على القطن بالدرجة الأولى من تركيا وتصدّره إلى المراكز الرئيسة لصناعة المنسوجات في أوروبا. وعلى الرغم من أن البندقية وجنوى كانتا اللاعبين الرئيسين، فقد لعب كثير من المدن والدول الأوروبية الأخرى دوراً نشطاً في تجارة المشرق والبحر الأبيض المتوسط. وبرز التجار الكتالونيون من برشلونة وبلنسية في تصدير الأقمشة الصوفية المنتجة في بلادهم وزيت الزيتون من إسبانيا إلى مصر وسوريا. وشاركت في التجارة أيضاً أمالفي وبيزا ومدن إيطالية أخرى، وراغوزا[٨٣] على الشاطئ الشرقي للأدرياتيكي.

ويمكن النظر إلى نهاية القرن الخامس عشر في عالم البحر الأبيض المتوسط كله على أنها كانت نقطة تحول تاريخي، اجتازت فيه منطقة العصر القديم الكلاسيكي وامتدادها والحضارة الإسلامية أزمة وتحولاً، عكسا تحولات بالغة الأهمية في القوى الاقتصادية والاجتماعية التحتية لصالح شمال غرب أوروبا والمحيط الأطلسي، وهو تحول سيتضح بجلاء إبان القرن التالي. في أوروبا الغربية، يعتبر هذا التحول بعيداً عن إيطاليا والبحر الأبيض المتوسط ونحو البلاد الواطئة وشبه الجزيرة الأيبيرية معروفاً، لكننا لا نعرف الكثير حول التحول الذي صاحبه في العالم الإسلامي. كان المماليك الذين حكموا مصر و"سوريا الكبرى" (التي تضم لبنان وفلسطين وشرق نهر الأردن)

---

(٨٢) فوكيا Phocaea مدينة أيونية قديمة على الساحل الغربي للأناضول [المترجم].

(٨٣) راغوزا Ragusa مدينة على ساحل دالماشيا بكرواتيا الحالية، كانت جمهورية بحرية مهمة في البحر الأبيض المتوسط من العام ١٣٥٨ إلى العام ١٨٠٨ [المترجم].

وكذلك المدينتين المقدستين مكة والمدينة في الحجاز، أقوى دولة في العالم الإسلامي فيما بين سقوط الخلافة العباسية في العام ١٢٥٨ وسقوط القسطنطينية أمام العثمانيين في العام ١٤٥٣. وكان المماليك والعثمانيون كلاهما من أهل السنة، وكانت أصول نخبتيهما ترجع إلى سهول غرب آسيا الوسطى، لكن كان مقدراً لهما- مع ذلك- أن يتنافسا على قيادة العالم الإسلامي.

يرى كارل بتري Carl F. Petry أن الدولتين كانتا تختلفان جذرياً، من حيث إن الدولة المملوكية ذات الوجود الأقدم كانت ترغب في الحفاظ على الوضع الراهن، فيما كانت الدولة العثمانية الجديدة توسعية ودينامية[١٣١]. وقد انعكست النزعة المحافظة المتأصلة في الدولة المملوكية، وفقاً للدراسة الكلاسيكية لديفيد أيالون David Ayalon بشكل واضح وقاتل في موقف طبقتها الحاكمة العسكرية من استخدام البارود والأسلحة النارية[١٣٢]. فكوْنهم فرساناً مهرة يمتلكون مهارات لا تُضاهى في استخدام القوس والرمح جعلهم معادين للتقنية العسكرية الجديدة المعتمدة على هذه الابتكارات وغير متقبلين لها، فلم يجهزوا غير الوحدات الاحتياطية بالأسلحة النارية، واستخدموا المدفعية للدفاع عن السواحل فقط، وليس لمعارك الميدان. في حين أن تعرض العثمانيين الأكبر للحرب مع القوى الأوروبية في البلقان وأوروبا الوسطى جعلهم يتبنون موقفاً أكثر تقدماً بكثير من المماليك في تسليح مشاة الانكشارية بالبنادق واستخدام المدافع على نطاق واسع، ليس في عمليات الحصار فقط، كما حدث في حصار القسطنطينية، بل في معارك الميدان أيضاً. وقد أثبتت مدفعيتهم أنها حاسمة في هزيمة الدولة الصفوية الصاعدة في عهد الشاه إسماعيل في معركة جالديران Chaldiran في العام ١٥١٥، وفي العام ١٥١٦ والعام ١٥١٧ ألحقوا هزيمة مماثلة بالجيوش المملوكية في سوريا ومصر. وبذلك ضُمَت المملكة المملوكية كاملة إلى إمبراطورية السلطان سليم ياوز (١٥١٢-

١٥٢٠) أو سليم الأول العابس كما كان يعرف في الغرب، مع أن المماليك أنفسهم ظلوا مجموعة مؤثرة داخل الإمبراطورية.

جنوب شرق آسيا والصين إبان الفترة ١٣٥٠–١٥٠٠

نتحول الآن إلى المنبع الأول للتوابل التي كان العالم الإسلامي يبيعها لأوروبا المسيحية، وهو تحديداً جنوب شرق آسيا، وإلى العلاقة بين تلك المنطقة والصين. شهد القرن الخامس عشر توسعاً كان مدفوعاً بالدرجة الأولى بالطلب على الفلفل والتوابل القادمين من الصين في الشرق، الذي تمته التجارة الغربية إلى البحر الأحمر والخليج العربي، ما عكس الطلب من العالم الإسلامي والرخاء المتنامي في أوروبا الغربية. ولذلك يطلق أنتوني ريد Anthony Reid على الفترة من العام ١٤٠٠ إلى العام ١٦٥٠ من تاريخ جنوب شرق آسيا اسم "عصر التجارة"[١٣٣]. وهذا رد مقبول على الرؤية المتمركزة حول أوروبا التي تربط التجارة في آسيا بـ"حقبة فاسكو دا غاما" التي تبدأ من نهاية القرن الخامس عشر فقط. فبعد أن لاحظ ريد الركود في تجارة التوابل في منتصف القرن الرابع عشر بسبب الخراب الناتج عن الطاعون وسقوط الإمبراطورية المغولية، نجده يربط بداية "عصر التجارة" بسلسلة من الرحلات الكبرى أرسلتها إمبراطورية مينغ الصينية بداية من ١٤٠٥ فصاعداً بقيادة أمير البحر المسلم زينغ هي Zheng He (أو تشينغ هو Cheng Ho).

تنظر روايات الكُتاب الغربيين في معظمها إلى رحلات إمبراطورية مينغ على أنها كانت مجرد إظهار لقوة الدولة الجديدة، وتتجاهل تأثيرها الاقتصادي. لكننا في المقابل، نجد باحثاً صينياً حديثاً، هو تين جو كانغ Tien Ju-kang، يؤكد أن رحلات زينغ جلبت كميات هائلة من الفلفل من جنوب شرق آسيا وساحل مالابار[١٣٤]. ويقول إن "التحول الذي حدث في الصين في قيمة الفلفل من كوّنه سلعة ثمينة إلى كونه سلعة شائعة

الاستخدام نتج عن رحلات تشينغ هو (زينغ هي)"[١٣٥]. ويقول ريد Reid إن "هذه البعثات حفزت- بلا شك- إنتاج المحاصيل في جنوب شرق آسيا من أجل السوق الصيني"[١٣٦]. وبالفعل في هذا الوقت تقريباً، انتقلت مزارع الفلفل من مالابار في جنوب الهند إلى شمال سومطرة، ومنها كان الفلفل يصدّر إلى الصين. وقد كان الفلفل احتكاراً إمبراطورياً في عهد إمبراطورية مينغ التي استخدمته إلى جانب خشب الصندل وغيرها من الواردات الثمينة بدلاً من العملة الفضية أو الورقية، لمكافأة مئات الآلاف من الجنود والموظفين الحكوميين. وبعد توقف الرحلات، استمرت واردات الفلفل تتدفق بوفرة بفضل التجارة الخاصة ودفع الجزية، وهو ما أدى إلى انخفاض في السعر بلغ عشرة أضعاف في أوائل القرن السابع عشر. وإلى جانب الفلفل، كان القرنفل والشجر الأحمر(٨٤) سلعتين مهمتين في هذه التجارة.

شهد القرن الخامس عشر عنفوان مالاكا باعتبارها "الدولة المينائية"(٨٥) الملايوية الكلاسيكية، كما عَرّفها كاثيريثامبي- ويلز وفيليرز Kathirithamby-Wells and Villiers[١٣٧]، في ظل حكم ملك محلي فتح ميناءه للتجار من أرجاء الأرض كافة. كانت أمثال هذه الكيانات السياسية تقع على مجاري أنهار، ما هيأ لها الوصول إلى مناطق داخلية زراعية على ساحل البحر أو بالقرب منه، وهو ما مكّنها بدوره من الوصول إلى شرايين التجارة الدولية. كانت التجارة المصدر الرئيس للدخل الذي كانت تعيش عليه النخبة الحاكمة. ربما كانت الدولة نفسها مصدراً لمنتجات تصديرية رئيسة، أو كانت فحسب محطة تجارية لنقل منتجات المناطق الأخرى بين السفن. وبهذا المعنى يمكن النظر إلى مالاكا باعتبارها خليفة سريفيجايا وسلف سنغافورة، باعتبارها الدولة

(٨٤) الخشب الأحمر sappanwood شجر ينمو بالهند له استخدامات تجميلية وطبية [المترجم].

(٨٥) على منوال مفهوم الدولة المدينية، يشير مفهوم الدولة المينائية port-state إلى الدولة التي يتكون إقليمها من ميناء فقط، أو ميناء ومنطقة خلفية صغيرة [المترجم].

الميناائية الرئيسة بمنطقة جنوب شرق آسيا. على أن الجذور التاريخية لهذه الدولة يلّفها الغموض. ومن المعتقد أنها أقيمت في مكان إحدى قرى صيد الأسماك في نحو العام ١٤٠٢ على يد شخص يدعى باراميسفارا Paramesvara يقال إنه أمير من سلالة سيلندرا المالكة الجاوية وُلِد في باليمبانغ في سومطرة. ومن الواضح أنه سيطر على جانبي المضيق واعترفت به إمبراطورية مينغ حاكماً لمالاكا وفتح معها علاقات دبلوماسية. ومما لا يخلو من دلالة أن زينغ هي زار مالاكا في العام ١٤٠٩ في الرحلة الثالثة من رحلات إمبراطورية مينغ الشهيرة.

كان الإسلام يبدأ في الانتشار في سومطرة في ذلك الوقت، وكانت المملكة الميناائية باساي Pasai هي أول دولة يحكمها حاكم مسلم، ويعتقد أن باراميسفارا الهندوسي اعتنق الإسلام قبل وفاته في العام ١٤٢٤، كي يؤّمن اتفاقية التجارة مع باساي. ومن الواضح أن الحكام اللاحقين رجعوا إلى الهندوسية قبل اعتناقهم النهائي للإسلام بحلول منتصف القرن الخامس عشر. وقد دعم توسع التجارة بين الشرق والغرب، وبخاصة في التوابل في مقابل الفضة والأقمشة والخزف، ظهور مالاكا ونموها باعتبارها المركز التجاري الأول في جنوب شرق آسيا، بفضل موقعها الذي يربط المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي بين الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية المتناوبة. وانتشر الإسلام حتى جزر التوابل متبعاً نمو تجارة مالاكا. وفي الوقت الذي سقطت فيه مالاكا أمام الحملة البرتغالية في العام ١٥١١، كان عدد سكانها يقدّر بين مئة ألف ومئتي ألف، ما يعني أنها كانت المركز الحضري الأكبر في جنوب شرق آسيا[١٣٨].

كانت الضرائب التجارية توفر للدولة أغلب عائداتها، إذ لم يكن بها إنتاج زراعي باستثناء الخضراوات وبعض الفواكه الثمينة مثل الدوريان وجوز الجندم، وكانت تستورد كل الأرز المطلوب من بورما أو سيام أو جاوة معفياً من الرسوم والجمارك. وقد قدّرت القيمة الإجمالية للتجارة في نحو العام ١٥١١ بين واحد واثنين

مليون كروزادو برتغالي. كما أصدرت مالاكا عملة من القصدير، لكن كانت كل العملات تُتبادل بحرية في الأسواق. وكان للسلطان نفسه أسطول تجاري خاص ومارس التجارة لحسابه، وكذلك في شراكة مع تجار آخرين، على ما يبدو دون استغلال سلطته في منافسة القطاع الخاص الأجنبي أو المحلي. وكان لكل نقابة رئيسة، مثل الغوجارات والتاميليين والصينيين والجاويين، رئيس أو شاهبندر مسؤول عن عملياتها ومسؤول أمام الموظف الملكي المعين مركزياً المعروف باسم بنداهارا bendahara. وفي نحو العام ١٥١٦، يقال إن المدينة ضمت عشرة آلاف غوجاراتي، وأكثر من أربعة آلاف بنغالي وعربي وفارسي، وألف تاميلي، وعدة آلاف من الجاويين. وامتلكت الدولة جيشاً دائماً وأسطولاً من المرتزقة، كان يتممهما في زمن الحرب مجندون من الأقاليم المحيطة التي كانت تدين للسلطان بالولاء. وضمت مالاكا أيضاً جماعة مهمة، هي الأورانج لوت orang laut أو البدو البحريين، الذين تشكّل منهم صميم الفرق البحرية والنخبة الحاكمة للدولة. ويبدو أن ثقافة مالاكا كانت عالمية بكل معنى الكلمة. فالإسلام هناك لم يكن متشدداً، حتى إن مسلمي الشرق الأكثر ميلاً إلى المحافظة شجبوه على تساهله.

زعم العطار والدبلوماسي البرتغالي توم بيرز Tome Pires الذي زار مالاكا بعد وقت قصير من احتلالها في العام ١٥١١ أنه كان بوسع الشخص أن يسمع أربعاً وثمانين لغة تستخدم في اليوم الواحد. ويقدم بيرز في المجلد السادس من عمله وصفاً مفصلاً ساحراً لتجارة مالاكا. فيذكر أن مئة سفينة كبيرة على الأقل كانت تأتي إلى مالاكا كل عام بحمولات ثمينة جداً. ومن هذا المجموع، كانت خمس سفن تقريباً تأتي من غوجارات، ومثلها من ساحل كوروماندل، ومثلها من البنغال، ونحو خمس عشرة سفينة من ميناء بيغو Pegu ببورما الدنيا، وزهاء ثلاثين سفينة من سيام، وعشر سفن من الصين، وعشر من باليمبانغ، والباقي من الموانئ المختلفة الواقعة بالجزر والشرق الأقصى. وكان الميناء يضم مخازن لحفظ السلع في أمان إلى أن يتم التصرف فيها، وكذلك كل التسهيلات الضرورية لضمان حدوث التجارة بيسر وأمان. ويخبرنا بيرز أن

التجار من البحر الأحمر والخليج العربي كانوا يأتون بسلعهم إلى كامباي[٨٦] في غوجارات قبل أن يتقدموا إلى مالاكا، وأن "التجار القادمين من القاهرة كانوا يجلبون بضائع جلبتها سفن الغلياس[٨٧] من البندقية، منها الأسلحة والأقمشة الصوفية الملونة والمرجان والنحاس والزئبق والزنجفر[٨٨] والمسامير والفضة والخرز الزجاجي وغير الزجاجي والآنية الزجاجية المذهبة". وكانت كل سفينة من سفن كامباي تحمل حمولة قدّر بيرز قيمتها بين سبعمئة ألف وثمانمئة ألف كروزادو، وتضم ثلاثين نوعاً من الأقمشة "التي كانوا يثمّنونها كثيراً في هذه المناطق". وكانت حمولة العودة تضم القرنفل وجوز الطيب وخشب الصندل و"كميات هائلة من الحرير الأبيض" والقصدير وطيور كانت تستمد قيمتها من ريشها الجميل.

ويلاحظ بيرز الاعتماد المتبادل بين الميناءين الكبيرين، ويقول إن "تجار كامباي جعلوا مالاكا مركزهم التجاري الرئيس" وأن "مالاكا لا تستطيع أن تعيش دون كامباي، ولا كامباي دون مالاكا، إذا أرادتا الثراء والرخاء". وكان التجار التاميليون المعروفون باسم الكلينغ Kling يجلبون كميات كبيرة من الأقمشة، كانت تُبادَل مع خشب الصندل والكافور والشب والتوابل واللآلئ والذهب، وكان التجار التاميليون- كما يقول بيرز- "يمتلكون كل البضائع ويمتلكون من تجارة مالاكا أكثر من أية نقابة أخرى". وكان أكبر هؤلاء التجار التاميليين هو نينا شاتو Nina Chatu الشهير الذي صادق البرتغاليين حين جاؤوا لأول مرة إلى مالاكا في العام ١٥٠٩، وعينوه

---

(٨٦) كامباي Cambay مركز تجاري قديم بولاية غوجارات الهندية، تسمى حالياً خامبات Khambhat [المترجم].

(٨٧) الغلياس سفينة شراعية ضخمة ذات مجاديف كانت تستخدم إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر [المترجم].

(٨٨) الزنجفر مسحوق أحمر اللون، ناصع مائل إلى الصفرة، يستخدم كصبغة، خاصة في صباغة الأقمشة والمنسوجات [المترجم].

بنداهارا بعد استيلائهم على الدولة في العام ١٥١١ ، وانتحر بعد أن عينوا أميراً ملايوياً مكانه لاسترضاء الشعب. ويختتم بيرز وصفه لمالاكا بأنشودة حماسية جزلة للميناء وإمكاناته، ليس فقط باعتباره أفضل قاعدة تجارية في العالم بفضل موقعه الفريد، لكن أيضاً بالنظر إلى الانتصار في الصراع ضد الإسلام[٨٩] لأن "البضائع تدعم ديننا"، وبالنظر إلى المنافسة التجارية ضد الخصم الأوروبي الرئيس للبرتغال — البندقية – لأن "من يحكم مالاكا يمسك برقبة البندقية"[٩٠].

على أن مالاكا رغم سيطرتها على المضايق، لم يكن بمقدورها أن تتجنب الاعتراف بدرجة من الاعتماد على دولة أيوثايا Ayutthaya الواقعة في سيام الأكثر منها في الكثافة السكانية والتي استطاعت أن تسيطر عسكرياً على شبه جزيرة الملايو من طرفها الشمالي. كانت أيوثايا تقع بالقرب من مصب نهر تشاو فرايا Chao Phraya الذي يصب في خليج سيام. وبذلك كان طريقها مفتوحاً إلى سهول الأرز الخصبة وإلى منفذ بحري على تجارة ما وراء البحار، ما أعطاها توليفة هائلة من القوة البشرية والعائدات الزراعية والتجارية. تأسست الدولة في العام ١٣٥١ على يد حاكم من أصول مختلطة تايلندية ملكية وصينية تجارية، وهو ما انعكس في الأساس الثنائي الذي ميّز هذه الدولة

(٨٩) مع أن مسلمي مالاكا ربما لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الأندلس والمغرب العربي وميراث الحملات الصليبية، وأن هذا الأندلس وذلك المغرب ربما لم يعرفا بوجود مالاكا وجزر الأرخبيل الإندونيسي، فمن المؤكد أن البرتغاليين في جزر إندونيسيا وإسبانيا في جزر الفلبين كانوا مدفوعين إلى جانب المكاسب التجارية والإمبريالية، بعداء قديم وراسخ للإسلام والمسلمين، وهو أمر ربما جهله مسلمو إندونيسيا آنذاك، فضلاً عن تسامحهم الذي أكد عليه المؤلفان، في حين اعتبر هذا المؤلف البرتغالي احتلال مالاكا انتصاراً في صراع أوروبا المسيحية ضد الإسلام. وبعد احتلال مالاكا بنحو سبعة عقود، حاول ملك البرتغال سباستيان احتلال المغرب في العام ١٥٧٨ ، لكنه هُزم في معركة وادي المخازن أو القصر الكبير وقتل فيها وهلك جيشه كله [المترجم].

(٩٠) كان تطويق البندقية والقضاء على هيمنتها على تجارة البحر الأبيض المتوسط أحد الأسباب الرئيسة لرحلات الاستكشاف البرتغالية [المترجم].

المهمة في جنوب شرق آسيا. ويوضح الجدول رقم (٣.١) المأخوذ من ريد[١٣٩] أن أيوثايا استجابت بحماس لفرصة التجارة مع الصين في بداية إمبراطورية مينغ في العام ١٣٦٩ ، فأرسلت ستين بعثة "جزية" منقولة بحراً في السنوات الستين من العام ١٣٦٩ إلى العام ١٤٢٩ ، وهو عدد أكبر مما أرسلته أية دولة أخرى في جنوب شرق آسيا ، مع أن تشامبا وجاوة أرسلتا أكثر من أربعين بعثة لكل منهما إبان الفترة نفسها.

الجدول رقم (٣,١).عدد بعثات الجزية المنقولة بحراً إلى الصين إبان الفترة ١٣٦٩–١٥٠٩.

الفترة	سيام	كمبوديا	تشامبا	جاوة	مالاكا	باسايا
١٣٦٩ -١٣٩٩	٣٣	١٣	٢٥	١١		١
١٤٠٠ -١٤٠٩	١١	٤	٥	٨	٣	٣
١٤١٠ -١٤١٩	٦	٣	٩	٦	٨	٧
١٤٢٠ -١٤٢٩	١٠		٩	١٦	٥	٥
١٤٣٠ -١٤٣٩	٤		١٠	٥	٣	٣
١٤٤٠ -١٤٤٩	٣		٩	٧	٢	
١٤٥٠ -١٤٥٩	٢		٣	٣	٣	
١٤٦٠ -١٤٦٩	١		٤	٣	٢	١
١٤٧٠ -١٤٧٩	٤		٣		١	
١٤٨٠ -١٤٨٩	٣		٣			٣
١٤٩٠ -١٤٩٩	٣		٣	٢		
١٥٠٠ -١٥٠٩	١				٢	

المصدر: Reid (1999, table 1, p. 87)

وتأسيساً على التأثيرات الثقافية من حضارة أنغكور[٩١] المبكرة الواقعة إلى الشرق، تطورت أيوثايا إلى دولة بيروقراطية مركزية جداً، تضم تراتبيات منفصلة من الموظفين المدنيين والعسكريين وتوزيعاً للقوة البشرية والموارد الأخرى على وظائف محددة. واستطاعت إبان القرن الخامس عشر أن تمد نفوذها إلى حدود بورما ولاوس وإلى الميناءين المهمين ميرغوي Mergui وتيناسيريم Tenasserim، ما أعطاها منافذ على خليج البنغال. وكانت سلعتها التصديرية الرئيسة، إضافة إلى الأرز والقصدير من شبه جزيرة الملايو، هي جلود الأيل التي كان الطلب عليها كبيراً في الصين اليابان وجزر ريوكيو[٩٢]. وعلى الرغم من السيطرة المَلكية المطلقة على إدارة تجارة مار وراء البحار، فقد عهد بها إلى موظفين من أصول أجنبية، منهم المسلمون الفرس والهنود إضافة إلى الصينيين والسياميين – الصينيين، يتمتعون بخلفية وخبرة تجارية. واحتفظت المملكة باتصالات نشطة مع الصين التي اعترفت بها كدولة ذات سيادة، وكذلك مع الهند والشرق الأوسط وكل الدول الملايوية والإندونيسية.

كان المنافسون الطبيعيون لأيوثايا إبان القرن الخامس عشر هم الشان[٩٣] الذين كانوا أقرباء لهم عرقياً ولغوياً والذين كانوا مقسمين إلى كثير من الدول الصغيرة، ومملكة المون Mon في ميناء بيغو ببورما الدنيا التي تأسست في العام ١٣٥٦، والمملكة البورمية في آفا Ava، تلك الدولة الضئيلة التي تأسست في العام ١٣٦٤ خلفا

(٩١) أنغكور Angkor (بمعنى "المدينة المقدسة") منطقة في كمبوديا كانت موطن الخمير الحمر، ازدهرت بين القرنين التاسع والخامس عشر، بدا وجودها في العام ٨٠٢ حين أعلن ملكها الهندوسي الخميري جايفارامان الثاني نفسه "الملك العالمي" أو "الملك الإله"، وانتهى في العام ١٣٥١ حين أصبحت تابعة لأيوثايا [المترجم].

(٩٢) ريوكيو Ryukyu مجموعة من الجزر البركانية اليابانية تمتد إلى الجنوب الغربي من جزر كيوشو إلى تايوان [المترجم].

(٩٣) الشان Shans جماعة عرقية طايية Tai بجنوب شرق آسيا، يعيش معظمهم في الهند حالياً، ويتحدثون اللغة الآسامية [المترجم].

لإمبراطورية باغان التي سقطت إبان القرن الثالث عشر. شاركت بيغو بقوة في تجارة مالاكا وخليج البنغال، وجعلها خشب الساج مركزاً رئيساً لبناء السفن لعالم جنوب شرق آسيا كله. فالسفن الكبيرة التي كانت تحمل الشحنات إلى مالاكا والموانئ الأخرى في جنوب شرق آسيا، كانت في الغالب تباع هي عينها في الموانئ التي تقصدها. وكانت بيغو تصدّر أيضاً "جِرار المرطبان" التي كانت شائعة في عالم جنوب شرق آسيا كآنية للماء والزيت والحبوب. وساعد دخل بيغو من التجارة الخارجية حكامها إبان القرن الخامس عشر على انتزاع شروط مميّزة في مقابل مملكة آفا البورمية الزراعية الداخلية التي كانت تفتقر إلى منفذ على البحر. وفي المقابل، كانت آفا تمتلك عائدات كبيرة من المناطق المروية المنتجة بالمنطقة الجافة في وسط بورما، ما مكّنها من إعالة سكان أكبر من مستنقعات الامتدادات الدنيا لأنهار إيراوادي وسيتانغ Sittang وسالوين Salween التابعة لبيغو.

كانت سلسلة أراكان يوما Arakan Yoma الجبلية تفصل آفا وبيغو عن مملكة أراكان، تلك المملكة التي كانت تمتد إلى الجنوب الشرقي على طول الساحل من البنغال، التي كانت تربطها بها اتصالات اقتصادية وثقافية قوية على الرغم من الاختلافات الدينية بين البوذية والإسلام. كانت مروكيو Mrauk-U عاصمة هذه المملكة، التي تأسست في العام ١٤٣٣ على نهر في سهل أرز خصب يمتد إلى البحر، تسيطر أيضاً على الميناء المهم ومركز المنسوجات القطنية شيتاغونغ Chittagong في البنغال من العام ١٤٥٩، إلى أن انتزعها منهم المغول في العام ١٦٦٦، وقد وهبها ذلك تنوعاً في الاقتصاد والدخل خلال تلك الفترة التي تمتعت فيها بأوج قوتها ورخائها. كانت المنسوجات القطنية البنغالية، كما رأينا قبل قليل، تحظى بطلب كبير في أنحاء جنوب شرق آسيا كافة، وكان يمكن بيعها في المناطق الداخلية وحول الخليج، في مقابل

سلع أخرى منها الياقوت من بورما العليا وواردات السلع الصينية القادمة عبر نهر إيراوادي من يونان. واحتفظ الأراكانيون بأسطول حربي قوي تخصص في العمليات البحرية في المياه الضحلة للجداول والأنهار، كانوا يستخدمونه في الغارات من أجل الغنائم والعبيد في البنغال، وكان ذلك مصدر دخل آخر مربح.

كانت فيتنام مقاطعة صينية طوال الألفية الأولى كلها تقريباً. ولذلك سعت إمبراطورية مينغ المبكرة مدفوعة بالحرص على الاتصال بما وراء البحار، إلى استعادة الهيمنة الصينية على هذه المنطقة العنيدة، باحتلالها في العام ١٤٠٧، بذريعة الإطاحة بمغتصب الحكم، لكنها في الحقيقة كانت تريد أن تفرض حكماً مباشراً عليها. قاوم الفيتناميون- كعادتهم- وأقام قائد الثورة الوطنية دولة جديدة لسلالة لي Le في العام ١٤٢٨، عاصمتها هانوي. واعترفت إمبراطورية مينغ بسلالة لي ملوكاً لأنام Annam (التي تعني "الجنوب الهادئ") بعد دفع الجزية، وبذلك عمّ السلام الربوع كلها وعادت العلاقات إلى القاعدة التقليدية للخضوع الاسمي مع الاستقلال الفعلي. وكان أبرز حكام الدولة الجديدة هو لي ثان تون Le Thanh Ton (١٤٦٠-١٤٩٧) الذي فتح مملكة تشامبا إلى الجنوب في العام ١٤٧١، وبذلك امتد ملكه ليشمل دلتا ميكونغ وموقع سايغون Saigon الحديثة إضافة إلى القاعدة التقليدية لدلتا النهر الأحمر اللتين يجمعهما الشريط الساحلي الطويل شرق سلسلة جبال أنام.

وعلى ذلك، فإلى جانب مالاكا، ضمت منطقة جنوب شرق آسيا كثيراً من المراكز الإقليمية الأخرى مثل أراكان وبيغو وأيوثايا، وكثيراً من الدول الساحلية الجاوية الشمالية، ازدهرت جميعها في تلك الفترة. كانت المنافسة السياسية والحرب موجودتين بالطبع، لكن من الملاحظ أنه لم تظهر دولة ذات ادعاءات إمبراطورية في

جنوب شرق آسيا في هذا القرن. كانت قوة ممالك باغان وأنغكور وماجاباهيت[٩٤] ومجدها قد أصبحا في طي النسيان، ولم يظهر منافسون جدد حتى ذلك الحين. ومع أن مالاكا وعدة موانئ إندونيسية وملايوية أخرى شاركت في تجارة المسافات الطويلة، إلا أن حاجتها للسلع المحلية حفزت إنتاج الأرز ونشاطات بناء السفن في بورما وتايلند. ولذلك كانت تجارة المسافات الطويلة في التوابل والمنسوجات القطنية الهندية والحرير والخزف الصينيين تكملها في دول جنوب شرق آسيا تجارة المنطقة الداخلية في الأرز والخشب والسلع الضرورية الأخرى، وقد حقق ذلك تخصصاً دولياً فعَّالاً. ومع أنه لا توجد تقديرات كمية للصادرات الإجمالية لجنوب شرق آسيا إبان القرن الخامس عشر، فمن الواضح أن صادرات التوابل الإجمالية ارتفعت كثيراً[١٤٠].

أدارت إمبراطورية مينغ ظهرها للاتصال بما وراء البحار بعد العام ١٤٣٠ وفرضت حظراً وقيوداً شاملة على تجارة ما وراء البحار. فاختفت السفن والأحواض التي تصنع فيها، وبدأت تقنية الملاحة البحرية للمسافات الطويلة تتلاشى نتيجة لعدم الاستخدام. والتفسير الذي يُقدَم عادة لهذه الأفعال غير العقلانية هو الصراع على السلطة بين الموظفين الكونفوشيين التقليديين أنصار نسق القيم القائم على الزراعة والتركيز على التهديد البدوي الكامن في آسيا الوسطى من جانب، وعصبة خصيان القصر التي كان زينغ هي Zheng He نفسه ينتمي إليها وهم أنصار إظهار نفوذ الدولة في الخارج من جانب آخر، وفي هذا الصراع كان النصر من نصيب المجموعة الأولى. وكانت الغارات على المناطق الساحلية من جانب قراصنة الواكو wako اليابانيين الذين كانوا في حقيقتهم صينيين ساخطين سبباً آخر لنفور بيروقراطية إمبراطورية مينغ من

(٩٤) إمبراطورية ماجاباهيت Majapahit كانت آخر الإمبراطوريات الهندوسية العظيمة في الأرخبيل الملايوي، تبعت مملكة سريفيجايا، كان مقرّها في باليمبانغ على جزيرة سومطرة بشرق جاوة من العام ١٢٩٣ حتى العام ١٥٠٠ أو نحوه [المترجم].

تجارة ما وراء البحار. فسعى الصينيون إلى تجنب غاراتهم بفرض ضبط صارم على تجارة ما وراء البحار التي اقتصرت على نحو متزايد على نظام الجزية التقليدي. وفي هذا النظام، كانت التجارة تجرى فقط في سياق بعثات الجزية من دول تابعة معترف بها، وكان حجم السلع وأنواعها منظمّين بصرامة.

كان من النتائج المهمة لتلك السياسة الأهمية المتزايدة لجزر ريوكيو في عهد الملك شو هاشي Sho Hashi الذي شجع التجار الصينيين الجنوبيين على الاستيطان قرب أوكيناوا والقيام بالتجارة مع اليابان والصين وجنوب شرق آسيا، ووفر بذلك حلقة وصل مهمة بين هذه الأسواق الرئيسة[١٤١]. يوضح الجدول رقم (٣.١) أن بعثات الجزية من جاوة وسيام وتشامبا وأماكن أخرى ظلت تتدفق على الصين إبان القرن الخامس عشر بعد انكفاء إمبراطورية مينغ على الذات، وإن كان تكرارها قد تناقص. ولذلك وصلت إحدى عشرة بعثة جزية من سيام إبان العقد الأول من القرن، وعشر إبان العقد الثالث، في مقابل ما لا يزيد عن أربع في أي عقد لاحق، وهذا النمط تكرر مع مناطق أخرى. فالصين لم تتحول إلى دولة مكتفية ذاتياً في تلك الفترة، لكنها أصبحت أكثر انغلاقاً بكثير منها في أي وقت سابق.

حجم تجارة التوابل إبان القرون الوسطى المتأخرة(٩٥)

نختتم هذا الفصل ببعض المعلومات الكمية حول مدى تجارة التوابل إبان القرن الخامس عشر، لأنها من أقدم البيانات المتاحة حول التجارة العابرة للقارات، ولأن تجارة التوابل كانت مهمة من الناحية الجيوسياسية. يذكر ويك Wake أن واردات الفلفل الأوروبية كانت نحو ألف طن سنوياً في العام ١٤٠٠، وأن البندقية كانت توفر زهاء ٦٠٪ منها[١٤٢]. وكانت واردات التوابل الأخرى غير الفلفل بين أربعمئة وسبعين طناً

(٩٥) تذكر أن العصور الوسطى المتأخرة تغطي القرنين الرابع عشر والخامس عشر [المترجم].

وخمسمئة وخمسين طناً، كانت البندقية تستورد أقل من نصفها. وبحلول العام ١٥٠٠، ارتفعت واردات الفلفل إلى أوروبا قليلاً إلى نحو ألف ومئتي طن، فيما انخفض نصيب البندقية إلى أقل من ٦٠٪. وبالنسبة للتوابل الأخرى غير الفلفل، بما في ذلك مواد أثمن كثيراً مثل القرنفل وجوز الطيب، فقد ارتفعت واردات أوروبا منها بسرعة أكبر كثيراً إلى ما بين ألف ومئتي طن وألف وثلاثمئة وخمسين طناً سنوياً، وارتفع نصيب البندقية منها إلى أكثر من ٦٠٪. وهكذا عوضت البندقية خسارة نصيبها في سوق الفلفل بزيادة كبيرة في التجارة التي هي الأكثر ربحاً في التوابل الثمينة.

يتضح من المناقشة السابقة أن الزيادة في الواردات الأوروبية إبان القرن الخامس عشر ربما عكست زيادة في الطلب الأوروبي أكثر منها تحسناً في شروط التجارة. والأدلة حول أسعار الفلفل تكشف أن ذلك هو ما حدث فعلاً. فقد قدم فريدريك لين Frederick Lane وإلياهو أشتور Eliyahu Ashtor أدلة على أن الأسعار الاسمية للتوابل، وبخاصة أسعار الفلفل، انخفضت إبان القرن الخامس عشر في البندقية والشرق الأدنى[١٤٣]. لكن الأسعار النسبية هي الأهم في توضيح الندرة أو الوفرة الاقتصادية للسلع، ولم يقدم المؤلفان أدلة مباشرة حولها. ويقترح أشتور أن جزءاً من تفسير انخفاض أسعار التوابل يتمثل في الاتجاه الانكماشي العام للأسعار في الشرق الأدنى الذي يعكس الاتجاه الانكماشي في أوروبا الذي أشرنا إليه في موضع سابق[١٤٤]. لكن على أية حال، حتى إذا انخفضت الأسعار الحقيقية للتوابل في البندقية والشرق الأدنى في تلك الفترة، فإن الشكل رقم (٣,٥) يوضح أن تلك النتيجة لا يمكن تعميمها على بقية أوروبا، لأن أسعار الفلفل الحقيقية (أي المعدلة ضد التضخم بأسعار الحبوب) ارتفعت في إنجلترا وهولندا وفلندرة والنمسا على مدار القرن[١٤٥].

إن النتوء في أسعار التوابل إبان العقد الثاني من القرن الخامس عشر أمر كاشف، لأنه يتزامن بالضبط مع بعثات زينغ هي. لقد شهد العام ١٤١١ احتلال سيلان (سريلانكا) وأسر أحد الملوك المحليين[١٤٦]. وقد رأينا أن هذه البعثات كانت تشتري كميات كبيرة من التوابل والفلفل، ومن المعقول أن يترجم ذلك إلى تراجع كبير في النسبة الباقية للتصدير إلى أوروبا، بالنظر إلى الدور المهيمن للسوق النهائي الصيني في ذلك الوقت. بل إن واردات القرنفل الأوروبية انخفضت من اثنين وعشرين إلى أربعة عشر طناً بين العقد الأخير من القرن الرابع عشر والعقد الأول من القرن الخامس عشر[١٤٧]. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن هذه الفرضية تؤكد الاعتماد المطلق لأوروبا على ظروف السوق الآسيوي في تلك الفترة والمكانة المحيطية لأوروبا في الاقتصاد الدولي. فآسيا، وليس أوروبا، هي التي كانت تحدد سرعة التجارة العابرة للقارات(٩٦).

على أن هذا الحال سرعان ما طالته يد التغيير بسبب القوى التي بحثناها في هذا الفصل. فقد رأينا كيف أدى الطاعون إلى رفع مستويات المعيشة الأوروبية، وبالتالي الطلب على السلع التجارية الآسيوية، في الوقت الذي أصبحت فيه التجارة البرية مع آسيا مستحيلة على الأوروبيين الغربيين مرة أخرى. وارتفاع أسعار الفلفل والسلع الكمالية الأخرى يكون متوقعاً في ظل هذه الظروف فقط، تماماً كما حدث نتيجة للاستغلال المتزايد للمستهلكين الأوروبيين من جانب الوسطاء المسلمين والبنادقة الذين رفعوا هامش السعر إلى التكلفة استجابة لمستويات الطلب المتزايدة. وبذلك يمكن فهم

(٩٦) إذا صدقنا إدوارد غيبون، وهو ما نريده فعلاً، فإنها ليست المرة الأولى التي تؤثر فيها الأحداث في شرق آسيا على الأسعار النسبية البريطانية بطريقة مباشرة. فغيبون يقول إن "أهالي غوثيا Gothia (السويد) وفريز Frise تملكهم الرعب من التتار في العام ١٢٣٨، فلم يرسلوا سفنهم- كالعادة- إلى مصايد الرنغة على ساحل إنجلترا، ونتيجة لتوقف التصدير، أصبح الأربعون أو الخمسون من هذه الرنغة تباع بشلن .... وإنه لأمر غريب جداً أن تؤثر أوامر خان المغول الذي ينتهي سلطانه عند حدود الصين بخفض أسعار الرنغة في السوق الإنجليزي" (Gibbon 1907, p. 148).

التعارض بين انخفاض أسعار التوابل في مصر والبندقية وارتفاعها في مراكز الاستيراد الرئيسة في شمال غرب أوروبا.

أدى ذلك كله، إلى جانب استنفاد التخوم الأوروبية إبان القرون الوسطى[١٤٨](٩٧)، إلى تعزيز الحافز لدى الأوروبيين من غير البنادقة للبحث عن طريق بعيد عن الوسيط الإسلامي الذي حال دون الوصول المباشر إلى كل من التوابل الآسيوية والذهب الأفريقي، وهو هدف تبناه الأوروبيون- كما رأينا- منذ القرن الثالث عشر على الأقل. وهذا الحافز الاقتصادي أكمله الحافز الثقافي والجيوسياسي للعودة إلى كاثاي(٩٨)، تلك الرغبة التي ظلت حية بفعل حكايات الرحالة التي أُنْتِجت في زمن السلام المغولي. وبتعبير فيليبس Phillips، فإننا "بقليل من المبالغة، نستطيع أن نقول إن الميراث النهائي لفتوحات جنكيز خان وأتباعه في آسيا وأوروبا الشرقية إبان القرن الثالث عشر تمثل في اكتشاف الأوروبيين والشعوب الأمريكية الأصلية بعضهم بعضاً في نهاية القرن الخامس عشر"[١٤٩].

(٩٧) على خلاف مفهوم "الحدود" الذي يشير إلى خط، يشير مفهوم "التخوم" إلى منطقة. وعلى غرار التخوم الأمريكية، كانت التخوم دوماً متنفساً للتوسع وضم أراض جديدة [المترجم].

(٩٨) "كاثاي" هو الاسم المتداول للإشارة إلى الصين في أوروبا إبان العصور الوسطى، وذلك بسبب ربطها بإمبراطورية الخيتان الموالين للمغول [المترجم].